الموازنـــة

بين الشعر والنثر عند المبرد
بين النظرية و التطبيق
دراسة تحليلية

إعـداد

بهاء محمد محمد عثمان

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الآداب – جامعة سوهاج

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي خاتم المرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلي آله وصحبه أجمعين، وبعد.....

فإن الاهتمام بالتراث العربي، والسعي للكشف عما به من أفكار وقضايا أمر مهم، تحاول الدراسة جاهدة الوقوف أمام فكرة من أهم أفكاره، وهي الموازنة بين الشعر والنثرعند المبرد[1] زعيم المدرسة البصرية ، وإمام النحاه في عصره[2].

وتتنوع مؤلفات المبرد بين اللغة والأدب والبلاغة لتشمل جل فروع العربية، وهى اختيارات من روائع الأدب العربي ولاسيما الشعر، وهذه الاختيارات تبدأ من العصر الجاهلي، وإلي زمن مؤلفه ثم شرحها وبيانها، ويطوف المبرد بقارئه خلال تحليله للنص الأدبي علي الكثير من مسائل اللغة والأدب والبلاغة،ودراسات القرآن الكريم والحديث الشريف، كما يورد الكثير من الأخبار والنوادر ومعارف العرب، ويوازن بينها.

أما عن الدراسات السابقة لهذه الدراسة، فهناك دراسة "زكي مبارك في كتابه: "الموازنة بين الشعراء "، ودراسة الدكتور "أحمد توفيق الفيل" في كتابه: "الموازنات الأدبية في تاريخ النقد العربي"، وهي دراسات تاريخية تأصيلية أكثر منها تحليلية فنية، ولهذا فإن الجانب التطبيقي للموازنات فيها قليل جدا. ومن الدراسات المفيدة دراسة الدكتور "كمال عبد الباقي لاشين" المعنونةب"الموازنات الشعرية في النقد العربي القديم" وهي دراسة تلم بجوانب الموضوع، وتكشف عن أغواره. وقدعرضت هذه الدراسة لموضوع الموازنات من جميع جوانبه، حيث تتبعت الموازنات تاريخيا للكشف عن تطورها، وأوضحت الأسس التي تقوم عليها موازنات النقاد العرب القدماء، مع محاولة جادة لتطبيق هذه الأسس على نماذج أدبية.

---

1 – انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٣ /١١١ ، وقد أفاض د.رمضان عبد التواب بالمزيد من أخبارالمبرد عند تحقيق كتاب "البلاغة"للمبرد، مكتبة الثقافة الدينية ط٢ ١٩٨٥م

2 – أثر النحاة فى البحث البلاغي د. عبد القادر حسين ،مطبعة نهضة مصر، ص١٩٧

وتنقسم الدراسة إلي تمهيد و ثلاثة مباحث، على النحو الآتي :

التمهيد : أولية الشعر والنثر .

المبحث الأول: فكرة الموازنة (المفهوم والنشأة) .

المبحث الثاني: معايير الموازنة عند المبرد .

المبحث الثالث: الجانب التطبيقي لمفهوم الموازنة عند المبرد.

والدراسة تعتمد على المنهج التحليلي حيث يقوم الباحث بعرض الشواهد التي وردت في مجال الموازنة الأدبية في مصنفات المبرد، و بيان ما كان للمبرد من جهود فائقة في الشرح والتحليل والموازنة بين النصوص؛ ولذا قمت بهذه الدراسة الموجزة لتكون بيانا للفكر البلاغى عند المبرد وكيف وظف ذلك فى الموازنة بين النصوص شكراً ونثراً .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)

الباحث

التمهيد

أولية الشعر و النثر

لقد ثار جدل بين الدارسين والأدباء حول إشكالية "أيهما أسبق في الظهور: الشعر أم النثر الأدبي ؟ ولماذا ؟، وهو السؤال الذي يؤدي فيما بعد إلى سؤال آخر وهو: أيهما أفضل الشعر أم النثر؟.

وعن إجابة السؤال الأول يرى **عبد الكريم النهشلي (ت ٤٠٣هـ)** أسبقية النثر على الشعر، إذ ينسب إلى بعض العلماء بالعربية قوله: "أصل الكلام منثور، ثم تعقبت العرب ذلك، واحتاجت إلى الغناء بأفعالها، وذكر سابقيها ووقائعها وتضمين مآثرها...." [١].

كما رأى **الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)** أسبقية النثر الفني على الشعر،

فقد وُجِدَ النثر أولا ، ثم جاء بعده الشعر شيئا فشيئا ، إذ كان يعرض للناس في تضاعيف الكلام، ثم استحسنه الناس، وتتبعوه، وتعلموه [٢].

وخلاف هذا الرأي ذهب إليه بعض المستشرقين [٣]، وقد تابعهم في ذلك بعض نقادنا كالدكتور"طه حسين" الذي رأى أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة بدائية أولية، والحياة الأولية لا تتطلب النثر الفني؛ لأنه لغة العقل، بقدر ما تتطلب الشعر لأنه لغة العاطفة والخيال [٤].

ومهما يكن من صحة هذا الرأي أو ذاك، فقد أُثِرَ عن الجاهليين أجناس نثرية متعددة كالخطابة والوصايا والأمثال والحكم ....إلخ، و تشير هذه الأجناس إلى التقارب الشديد بين الخطابين الشعري و النثري إلى درجة أن حصروا الفرق بينهما في عنصري(الوزن القافية)فحسب دون النظر إلى طبيعة التركيب اللغوي والبنائي لكل منهما.

أما الإجابة عن السؤال الثاني، وهو: أيهماأفضل الشعر أم النثر؟، فقد كان موضوع كتاب البلاغة[٥] للمبرد وهو عبارة عن رسالة صغيرة في التعريف بحد البلاغة، أجاب بها

1–الممتع في صنعة الشعر، تح:د.محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالأسكندرية(د.ت)، ص١١

2 – إعجاز القرآن تح:السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٧م، ١١٨/١

3 –النثر الفني في القرن الرابع الهجري د. ذكي مبارك ،المكتبة العصرية ، بيروت (د.ت) ، ٣٧/١

4 – تاريخ الأدب العربي د.طه حسين ، ٢ /٤١٤

5– البلاغة للمبرد،تح/د.رمضان عبد التواب،مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٥م، ص٣٢

المبرد علي رسالة بعث بها "أحمد بن الواثق"[1] إليه يسأله فيهاعن أفضل البلاغتين الشعر أم النثر ، أو كما يسأل "أحمد بن الواثق" نفسه:" أي البلاغتين أبلغ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع ؟، فأجابه المبرد بتعريف البلاغة وبيان حدودها وذكر شرائط معينة يكون بها الكلام بليغا، ثم قال: إن هذه الشروط إن توفرت في الشعروالنثر علي حد سواء، فصاحب الشعر أبلغ لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه، وزاد عليه الوزن والقافية وهو يرى بعد ذلك أن سلامة أعضاء النطق والقدرة على الكلام، وقلة المعاناة فى ذلك، مما يفضل به الكلام على كلام، والمعنى واحد، إن جاء به الشاعر فى بيت واحد، كان ذاك أبلغ مما لو جاء به فى بيتين وضرب المبرد على ذلك بعض الأمثلة ثم ذكر بعد ذلك أن هذه المفاضلة تكون بين الأشكال والنظراء من المخلوقين، فإذا أخذنا كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – وجدناه يعلو على كل كلام، ويغلب كل قول، ويضرب المبرد على ذلك الأمثلة، ثم يأتى القرآن الكريم فيراه فى ذروة كل كلام، كيف لا، وهو الحجة والبيان، والداعى والبرهان؟، ويأخذ فى ذكر الأمثلة المختلفة، وهكذا تنتهي الرسالة.

وقد تباينت الأراء حول هذا الموضوع كما سنعرض لذلك فيمايلى

المبحـــث الأول

1 – هو ابن الخليفة العباسي الواثق أبو جعفر هارون بن محمد المعتصم – العقد الفريد ٥/ ١٢٢

فكـرة الموازنـة

(المفهـــوم والنشـــأة)

أ- الموازنة بين اللغة والاصطلاح

يذكر صاحب اللسان مادة (وزن) أي وازنت بين الشيئين موازنة ووزانا، وهذا يوازن هذا إذا كان على زنته، أو كان محاذيه[1]،

1 – لسان العرب: لابن منظور مادة "وزن"، المطبعة الأميرية ط ٤ ، ١٩٣٨م

الموازنة مصدر وازن بين الشيئين، ومثله "الوزان"، أما "الوزن" فهو مصدر وزن الشيء، ومثله"الزنة"، ومن معاني الموازنة في اللغة: تساوي الشيئين، أو حذوهما على مثال واحد من غير قصد الترجيح بينهما[١]،كما يذكر صاحب المصباح المنير: "هذا وزان ذاك وزنته أى معادله"[٢]، ، ويرى صاحب أساس البلاغة: "وازن الشئ: ساواه فى الوزن"[٣]. ونجد فى المعجم الوسيط: "وازن بين الشيئين موازنة ووزاناً: ساوى وعادل[٤]

ومن ذلك **يتضح** أن "الموازنة تعني وضع عملين أدبيين بمحاذاة بعضهما، ثم القيام بتحليلهما تحليلاً أدبياً قائماً على التعليل والإحصاء، طبقاً لأسس جمالية موضوعية متفق عليها نتيجة لاستقراء التراث ومبنية على ذوق سليم مدرب، ويمكننا القول بأن الموازنة تعني "المقابلة بين فكرتين أو أثرين أو مدرستين أو شخصيتين فى مبحث طويل أو فصل من مبحث"[٥].

وتحتاج **الموازنة** إلى معايير معينة يجب توافرها، لأنه لا يمكن أن تتم موازنة بصورة متكاملة، ولكن يمكن موازنة الأعمال الأدبية والمفاضلة بين الشعراء والأدباء بصورة تقريبية: "إن المفاضلة بين الشعراء الذين أحاطوا بقوانين الصناعة وعرفوا مذاهبها لا يمكن تحقيقها ولكن يفاضل بينهم على سبيل التقريب وترجيح الظنون"[٦].وهذا أمر منطقي حيث إن لكل أديب وجهة نظر خاصة به، وطرائق أسلوبية متفردة فى التعبير، رغم اشتراكه مع الأخرين فى التعبير عن غرض ما أو فكرة ما .

---

1 – انظر ومعجم المصطلحات النقد الأدبي للدكتور أحمد مطلوب ص ٣٢١_ ٣٢٤
وكتاب الموازنات الشعرية في النقد العربي القديم للدكتور كمال عبد الباقي لاشين،

2 – المصباح المنير: للرافعي مادة "وزن"، المطبعة الأميرية ط ٨ ،١٩٣٦م

3 – أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار الكتب المصرية ١٩٥٣م.

4 – المعجم الوسيط ، مادة "وزن"، مطبعة مصر،١٩٢١م

5–معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب د.مجدي وهبه،مكتبة لبنان،١٩٨٤،ص٧٠

6–منهاج البلغاء وسراج الأدباء للقرطاجني . تح محمد الحبيب بن الخوجة
بيروت –دار الغرب الإسلامي ط٣ ١٩٨٦م، ص ١٣٧

وقد أدرك النقاد العرب القدامى الذين تناولوا فكرة الموازنة فى مؤلفاتهم صعوبة الموازنة أيضا، ولذا فإن البعض منهم كان يتوقف عن إصدار الحكم النهائي لشاعر على آخر، بل كان يترك للقارئ أن يحدد هو من يفضل، يقول الآمَدي: "ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي؛ لتباين الناس فى العلم، واختلاف مذاهبهم فى الشعر، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك"[١] .

وقد يكون التفاوت بين الأدبين أو التباعد بين الأساليب وسيلة لبيان المفاضلة بينهما، قال **اسحاق الموصلى:** "سألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين، وقال اختر أحدهما. فاخترت، فقال من أين فضلت هذا على هذا، وهما متقاربان؟، فقلت: لو تفاوتا لأمكنني التبيين، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشئ تشهد به الطبيعة، ولا يعبر عنه اللسان"[٢].

فالتباعد وسيلة لبيان المفاضلة بين النظيرين، ولكن في حالة التقارب فإن المفاضلة تعود إلى الطبيعة أي **الحاسة الفنية،** وهي قد تَدِقُّ حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده من الكلام البليغ.

وتأتى الصعوبة في أن أوجه التلاقي بين العملين موضوع الموازنة، لا يمكن أن تكون تامة، كما أن تفاوت وجهات النظر حول الأعمال الأدبية من إنسان إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، ومن بيئة إلى بيئة اين خبر تختلف اختلافا تاما أن يبرر لذلك بقول"**ت.س.أليوت**" فى مقال بعنوان "التقاليد والنبوغ الفردي": "إن كل جيل من الأجيال يعنى بالفن عناية تختلف اختلافا تاما عن غيره من الأجيال، فكل جيل ككل فرد له مقاييسه الفنية المعينة، وله على الفن مطالب معينة، وله منه منافع كذلك معينة، أما ما يسمى بالتقدير الفني الخالص فهو فى رأيي مثل أعلى لا يمكن تحقيقه"(٣) .

---

1 – الموازنة الأمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف ط٢ ١٩٧٢م، ج١ص٦

2 – الموازنة ، ١ / ٣٩١

3 – مختارات من النقد العربي ، مجموعة مقالات مترجمة ترجمة د/رشاد رشدي . مكتبة الأنجلو (دت) ، ص١٣

ويشير هذا إلى أن المساحة التى يتشابه فيها الأديبان قد تكون ضيقة إلى حد ما، كما أن اختلاف أذواق النقاد القائمين على تقييم الأعمال الفنية المختلفة وثقافاتهم وبيئاتهم قد تكون ضيقة أيضا .

ب- الموازنة وعلاقتها بالنقد:-

إذا كانت وظيفة النقد تكمن في الكشف عن قيمة العمل الفني وبيان ما يحتويه من قيم جمالية ودلالية، فإن هذا الكشف لا يتأتى إلا إذا كنا علي وعي بهذه القيمة، ويكون ذلك بالممارسة والتعامل مع النصوص الأدبية من خلال قراءات تحليلية فنية .

ويمكن توظيف الموازنة في الكشف عن هذه القيم الجمالية الكامنة في الأعمال الأدبية والمفاضلة بين أصحابها، فوظيفة النقد التمييز بين الأشياء، وهذا التمييز لا يكون إلا بمزية، كما قال العقاد: "إن النقد هو التمييز، والتمييز لا يكون بمزية، والطبيعة نفسها تعلمنا سنتها في النقد والانتقاد حين تقضي علي كل ما تشابه، وتشرع إلي تخليد كل مزية تنجم في نوع من الأنواع"[١]

وتعيننا الموازنة بين الأعمال الأدبية بوجه عام والمتشابهة منها بوجه خاص علي فهم هذه الأعمال والقدرة علي إصدار أحكام نقدية تجاهها إن أمكن لقول **أليوت:** "وقد كنت كمحاضر أفيد من وسيلتين أستطيع بها أن أجعل تلاميذي يتذوقون الأدب تذوقا سليما، فكنت أزودهم بحقائق بسيطة عن الأثر الفني الذي يدرسونه ، والظروف التي كتب فيها، وما يتشابه به أو يتباين فيه مع أثر آخر، أو أعرضه عليهم عرضا لا تتسع معه الفرصة لهم في أن يكونوا حوله أو ضده آراء شخصية مميزة، والمقارنة والتحليل هما ضمن أدوات الناقد الأساسية، ولكن الأمر لا يعدو كون كل منها أداة يجب أن تتداولها الأيدي في كثير من الحرص والأناة، كما أننا يجب أن نعرف ما هو جدير بالتحليل وما هو جدير بالمقارنة، وأن نقيم أنفسنا أسيادا علي الحقائق خداما لها"[٢] .

---

1 – ساعات بين الكتب للعقاد، دار المعارف بمصر ، ط٣ ١٩٥٠م ، ج١/ص٢٥

2 – مختارات من النقد العربي ، مجموعة مقالات مترجمة ، صـ٥٥

ويمكن إدراك القيم الجمالية التي يشترك فيها العملان موضوع المقارنة أو يخالف أحدهما الآخر عن طريق الموازنة، وهذا الأمر يدخل في صميم مهمة النقد والناقد ، ولكن الناقد لا يريد أن يعرف فيما يشترك فيه المبدع مع سواه بقدر ما هو معنى بما ينفرد به هذا المبدع عن سواه[1].

ولا تنتهي مهمة الناقد عند الكشف عن أوجه التلاقي فقط، لكن الأمر يتعدى ذلك إلي الكشف عن مظاهر الإبداع والتفرد، وهذا الأمر يحتاج من الناقد قدرا من الذكاء والحيدة والقدرة علي فهم النصوص، فتحليل النصوص يمكننا من الوصول إلي الدلالات المتعددة التي يمكن أن تفجرها الألفاظ والصور التعبيرية، فالنص الجيد يحتمل أكثر من تأويل شريطة أن يتمتع هذا التأويل بقدر كاف من التبرير المقنع والقدرة علي إشباع النوازع الجمالية لدى المتلقي. قد يعجب كل جيل من الأجيال بالعمل الخالد طبقا لمفاهيم عصره، وهذا الأمر يكون له تأثيره علي الموازنة بين الأعمال الأدبية، بحيث يكون ما فُضِّل بالأمس ليس له الأفضلية اليوم، ولكن هذا الأمر لا يقلل من قيمة الموازنات بأي حال من الأحوال، كذلك يبدو أننا توصلنا إلي خاصية تعدد المعاني والقيم، ومفادها أن الأعمال الفنية الخالدة تستهوي أجيالا مختلفة وتقدم إعجابها لأسباب مختلفة أو – لكي يربط النتيجتين معا . أن الأعمال الرئيسة "الروائع" تحتفظ بمكانتها، لكنها تحتفظ بها بفضل سلسلة من الاستجابات المتغيرة"[2].

ويقتضي الأمر الإيمان بأن النص الجيد لديه القدرة علي الاستمرار وإشباع الميول الجمالية لدى المتلقي بما يمتلكه من القدرة علي العطاء الفني، وما يحققه من إيحاءات ودلالات، ويحدد "**د.العشماوي**" العوامل الأساسية التي يتحقق بها هذا المنهج التحليلي الذي يساعدناعلي فهم الشعر، والذي تلعب الموازنة فيه دورا مهما في النقد فيذكر منها: "القدرة علي تحليل أحكامنا وفق منهج لا يسمح بطغيان العنصر الشخصي .... و تحقيق هذا

---

1 – النقد الأدبي د. سهير القلماوي ، دار المعرفة ط٢ ، ١٩٥٩م ، ص١٥

2 – نظرية الأدب رينيه ويلك ، ترجمة محى الدين / حسام الخطيب ، دار الفكر ببيروت ط٣ ، ص٣٢٧

المنهج يتوقف علي طريقة الناقد في مناقشة العمل الأدبي الذي أمامه وعلي ما يسوقه من مبررات لأحكامه متخذا الأسلوب العلمي الذي يقوم علي الإحصاء والاستقصاء وعلى التدرج في الدراسة من المقدمات إلى النتائج، وعلى الاستشهاد والمقارنة والموازنة والتحليل التي هي أهم وسائل للنقد التحليلي[1].

ويمكن إجمال **أهمية الموازنة** القائمة علي التحليل للنقد فيما يأتي :-

١- تقوم الموازنة بوظيفة التوضيح للأعمال الأدبية، والنقد من أهم وظائفه التوضيح أو الترجيح، وكلاهما من الممكن أن يتحقق عن طريق الموازنة .

٢- تعد الموازنة أداة حيوية من أدوات النقد التحليلي، والتي يستعين بها الناقد من أجل تبرير الأحكام وتدعيمها، فمن الوسائل التدعيمية الحكم أن تضع النص الذي تنقده جنبا إلي جنب مع غيره حتى يكون ذلك وسيلة من وسائل تفسير النص وإلقاء الضوء عليه، وبيان ما فيه من خصائص عن طريق مقارنته بغيره[2]، بل نجد "**د.العشماوي**" يؤكد أن الموازنة من أهم وسائل النقد التحليلي فيذكر أن "الاعتماد علي الموازنة التي هي إحدى أدوات النقد الأساسية، والتي هي من الوسائل التي كثيرا ما يلجأ إليها النقد التحليلي"[3].

٣- تمنح الموازنة النقد الأدبي الموضوعية والمنهجية، فمن الممكن أن يكون النقد منهجيا ومنتجا إذا استخدم الموازنات لإبراز قيمة النص الفنية.

٤- تساهم الموازنة في تشكيل ملامح النظرية النقدية، يقول **رينيه ويلك:**"صحيح إننا إذا قارنا الأعمال الفنية فيما بينها ستتأكد الفروق بين هذه الأنماط وسيغدو ممكنا التقدم نحو تصنيف للأعمال الفنية من هذه المماثلات ذاتها بحسب أصناف الضوابط التي تجسدها

---

1 – قضايا النقد الأدبي من القديم والحديث د. محمد زكي العشماوي ، منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٩٣م، ص٧٢

2 – نفسه ، ص ٧٢

3 – قضايا النقد الأدبي من القديم والحديث ، ص ٢٨١

هذه الأعمال قد تصل في النهاية إلي نظريات في الأنواع، وأخيرا إلي نظريات في الأدب بوجه عام"[١] .

٥- تستخدم الموازنة أداة للبرهنة وإثبات وجهة النظر في القضايا النقدية المطروحة؛ فقد استخدم "**العقاد**" فكرة الموازنة في محاولة إثبات صحة الشعر الجاهلي والرد علي فكرة انتحاله"[٢].

٦- تستخدم الموازنة كأداة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم وعلو طبقته، قال **الباقلاني:**" ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل، والحكم بين فضل زهير والنابغة، أو الفصل بين البحتري وأصحابه..... فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بيّنا؟"[٣] فهناك صلة وثيقة بين إعجاز القرآن وبين قضايا النقد الأدبي عامة والموازنات خاصة.

ج- نشأة الموازنة في النقد العربي:-

كان لفكرة الموازنة أثر كبير في الدرس النقدي العربي، إذ أسهمت في بلورة نظرية نقدية في أدبنا العربي منذ البدايات الأولى لمحاولات تقييمه، حيث اختلفت وجهات النظر حول الأجناس الأدبية، فكانوا يميلون إلي جنس دون الآخر ويفضلونه، وقد يبدون الأسباب لهذا التفضيل أو لا يبدونها .

ويرجع الأصل في نشأة فكرة الموازنة في الثقافة الأدبية العربية منذ العصر الجاهلي إلي **أمرين:**

أولهما: شيوع الشعر عند العرب آنذاك وتفوقه علي سائر الأجناس الأدبية، واتخاذه أداة لإبلاغ الأخبار والمواقف والآراء وتسجيلها، لقد كان الشعر العربي قبل الإسلام ديوان حياة

---

1 - نظرية الأدب ، ص ١٦٥

2 - اللغة الشاعرة للعقاد ، مكتبة الأنجلو العربية، ١٩٦٠م، ص ١٩٤

3- إعجاز القرآن، ص٢٤٦

العرب ومبلغ علمهم؛ لذلك قال **ابن سلام(ت ٢٣٢هـ)**:"كان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم (أي حكمتهم)، به يأخذون، وإليه يصيرون"[١]. **كما قال ابن فارس:** "الشعر ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلّمت اللغة، وهو حجة فيما أُشكِل من غريب كتاب الله–عز وجل ثناؤه، وغريب حديث رسول الله،صلى الله عليه وسلم، وحديث صحابته والتابعين"[٢]

وثانيهما: أن خطباء الجاهلية عمدوا إلي المزج بين النظم والنثر في بعض خطبهم ، فكانوا السباقين إلي هذا الصنيع، وأوائل من لجأ إليه من أدباء العرب الذي صحت بعض آثارهم عند الرواة المدونين، وكان ذلك نابعا من التقارب بين موضوعات الشعر وموضوعات الخطابة مما أدى إلي المنافسة بين الشعراء والخطباء في الفوز بزعامة القبائل.

وعندما جاء **الإسلام** تقلص المزج بين الشعر والنثر في الخطب والرسائل معا فلم نجد له غير أمثلة قليلة في عهد الخلفاء الراشدين، منها خطبة لأبي بكر الصديق –رضى الله عنه– في الأنصار، استشهد فيها بأبيات لطفيل الغنوي[٣] ، ورسالة من الشاعر نصر بن حجاج إلي عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لما أُتهِمَ بإشاعة الفاحشة . ثم انتعش هذا النمط في العصر الأموي، ولكن كان في الخطب أكثر منه في الرسائل ، حيث دونت المصادر خطبا عديدة مزج فيها الخطباء بين النظم والنثر.

فالمفاضلة بين النظم والنثر كانت في أصلها بين والخطابة والشعر، ثم صارت في مرحلة لاحقة إلي المناظرة بين الشعر والشعراء من ناحية وبين الكتابة والكتاب من ناحية أخرى

د- المفاضلة اللغوية بين الشعر والنثر في التراث النقدي:-

---

1 – طبقات فحول الشعراء، وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني،ص١٦

2 – الصاحبى ، تح: السيد أحمد صقر ، القاهرة ، البابى الحلبي ، ١٩٧١م ، ص٤٦٧

3 – نفسه ، ص ١٦

كانت قضية المفاضلة أو الموازنة بين أدبين أو أديبين (شاعرين كانا أو كاتبين أو خطيبين) من القضايا النقدية القائمة علي الازدواج كقضايا اللفظ والمعنى، أو الطبع والصنعة، أو الصدق والكذب في الشعر. وترتبط هذه القضية بأمور كثيرة تعرض لها النقاد في دراستهم لها كتعريف الشعر وأنواعه: (القصيد – القصيدة – القريض– الرجز– النظم والمنظوم) ، وتعريف النثر وأنواعه: (الخطابة – الكتابة – الرسائل – الإنشاء)، وكذلك البحث في الأولية حيث نرى بعض النقاد أمثال الجاحظ وابن رشيق من الذين يرون أسبقية الشعر علي النثر، والبعض الأخر من النقاد يرون أن النثر أصل الكلام والنظم فرعه[١]

وقد انقسم النقاد في مواقفهم حيال المفاضلة بين النثر والشعر إلي ثلاثة مواقف وهي:

١- الموقف اللغوي المفضل للشعر علي النثر:

لم يكن الشعر في البيئة العربية التي أبدعته، وعلت به إلي درجة عالية، في حاجة إلي من يدافع عنه ويبرز محاسنه، ولم يكن الشعراء في بداية أمرهم وفي معظم مقامات عزّهم يستجدون العطف من أحد، أو ينتظرون منه الثناء، فقد كفاهم فنهم وما كان له من أثار ومنافع في حياة الناس .

فقد كانت خصومة الشعراء مع الخطباء قصيرة الأمد، بالنظر إلي خصومتهم مع الكتاب، وقد تعددت المواقف التي تقدم الشعر فيها علي النثر، والتي تعد مواقف أملاها في مجملها الجدال والتعصب لتراث العرب وبلاغتهم أمام التأثير الشعوبي، وتشير المصادر إلي وفرة ما أنتجوه من كتب[٢].

والذين فضلوا الشعر هم فى الغالب من **طبقة الشعراء**، وهم يرون أن الشعر صناعة قائمة بذاتها، بينما النثر "أي الكلام" يستطيعه كل إنسان، وكذلك ذهب هؤلاء إلى ذكر

---

1 – نوّه الباحث عن هذا الأمر في التمهيد

2 – من هذه الكتب: كتاب تفضيل الشعر والرد على من يحرمه وينقضه لأسحاق بن إبراهيم الموصلي – وكتاب البلاغة للمبرد

أمور عارضة تبين فضل الشعر كاحتوائه الحكم والشواهد، ونيل الشعراء الجوائز من الممدوحين ...[1].

ومن اللغويين والنقاد الذين شاركوا في قضية المفاضلة بين النظم والنثر **الحاتمي (ت٣٨٨هـ)**، فكان من القائلين بتفضيل الأول علي الثاني، إذ نسمعه يقول: "وأولى هذين بالمزية والفضل المنظوم فإنه أبدع مطالع، وأنصع مقاطع، وأطول عنانا، وأفصح لسانا، وأنور أنجما، وأنفذ أسهما، وأشرد مثلا، وأسير لفظا ومعنى "[2] .

ويتحدث **الحاتمي** أيضا عن المنظوم فيميزه برشاقة في الانسجام وبالخلود وبأنه أجمع للبديع، وأنه أبلغ أثرا في النفس من المنثور، غير أن النثر خير منه إذا جاء الشعر "غير معتدل النظم ولا متناسب القسمة ولا مقبول العبارة، وكانت معانيه بعيدة وألفاظه شريدة"[3]، بل إن المنثور "مطلق من عقال القوافي فإذا صفا جوهره، وطاب عنصره، ولطفت استعاراته، ورشفت عباراته، كاد يساوي المنظوم"[4].

كما كانت الفكرة الرئيسية عند **الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)** هي الانتصار للقرآن وبيان وجوه إعجازه، وقد توصل إلي ذلك بالمقارنة والمفارقة بين أسلوب القرآن وأساليب العرب في منظومهم ومنثورهم، وكان من المنتظر أن ينتصر للنثر ويفضله علي الشعر، ولكن ما حدث خلاف ذلك، يقول الباقلاني: "سمعت أفضل من رأيت من أهل العلم والأدب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمه في الكلام بقوله أن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة مما لا يتأتى في الشعر لأن الشعر يضيق نطاق الكلام فيه ويمنع القول من انتهائه، ويصده عن تصرفه علي سننه ..... وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة"، ويميل الباقلاني إلى الرأى الثاني،

---

1 – الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت ، ٢ / ١٣٨ بتصرف

2 – حلية المحاضرة ، ص٣

3 – نفسه ، ص٤

4 – نفسه ، ص٤

وبؤيده بقوله "ويشهد عندي للقول الأخير أن معظم براعة كلام العرب في الشعر، ولا نجد في منثور قولهم ما نجده في منظومه .... " [1]

ويبدو أن **الباقلاني** يبني تفضيله للنظم علي النثر في هذا النص علي أساسين :-

الأول: علاقة القرآن التاريخية بالشعر: فالقرآن جاء على لغة العرب، والشعر العربي يقوم بدور المعلم للغة، فهو يكشف عن استعمال العرب لمفرداتهم وتراكيبهم، وهو أفصح ما حققه العرب من صور التعبير والبيان، ويعد حجة فيما أشكل من الغريب؛ لأنه يكشف الغامض، ويفصح المبهم، ويبين المعنى، ويزيل اللبس، حتى أصبح الإلمام به ومعرفة أدواته من أساسيات المفسر.

الثاني: مشاركة القرآن للشعر في صفة النظم: فالقرآن كلام عربي، نزل بلغة العرب، وعلى طرائقهم في التعبير، وأساليبهم في البراعة والبيان، ومن هنا كان إعجازه في مبناه ومعناه، ومن هذه الأساليب تأتي صفة النظم وحسن التأليف، وهي الأساس الذي فضل عليه النظم علي سائر أصناف المنثور عند الجاهليين ومن تابعهم، وبالتالي فإن **الباقلاني** انتصر للشعر علي أساس ما هو مشهور ومتوارث في المجال الفكري الذي يبحث فيه، وعلي استحواذ الشعر علي وجدان الإنسان علي نحو قريب مما يفعله به القرآن، وكان الجانب البلاغي أهم عنده من غيره .

ويكشف لنا **ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ)** بأنه من أنصار الشعر، ويظهر من سياق كلامه ومن دفاعه عن الشعر والشعراء، وردوده علي أعدائهم أنه وقف علي كثير مما قيل أو كتب عنه، وأنه تدارسه وأعاد فيه النظر طويلا، وضم إليه ما له صلة به في تاريخ الشعر العربي من شواهد وأخبار أدبية، فنجده يقول: "وكان الكلام كله منثورا، فاحتاجت العرب إلي الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعرافها، ..... فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما

---

1 - إعجاز القرآن ، ص ١٣٢.

تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أي فطنوا"[1]، كما يرد علي المحتجين للنثر بأن القرآن لم يجئ منظوما، وكأنه يضع نصب عينيه حديث المرزوقي، ورده عليه غاية في الدقة: "إذ يرى أن مجئ القرآن منثورا أظهر في الإعجاز لقوم شعراء، وهو ليس بشعر، كما أنه أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، غير أن العرب حين حاروا في أمره سموه شعرا لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته"[2] .

"**وكلام العرب نوعان:** منظوم ومنثور، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة ورديئة ، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر وتساوت في القيمة، ولم يكن لإحداها الفضل علي الأخرى، كان الحكم للشعر ظاهرة في التسمية، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور، من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه، إذا كان المنثور ولم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب، وإن كان أعلى قدرا وأغلى ثمنا، فإذا نظم كان له أصول من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ وإذا كان منثورا تبدد في الأسماع، تدحرج عن الطباع، ولم تستقر منه إلا المفرط وفي اللفظ إذا كانت أجمله، والواحدة من الألف وعسى أن تكون أفضله"[3]

والملاحظ أن ابن رشيق يتفاعل مع النقاد واللغويين الذين يفضلون الشعر علي النثر، وإن كان عرضه أحسن وأوضح.

ب- الموقف اللغوي المفضل للنثر علي الشعر :-

ازدادت أهمية الكتاب المحترفين مع قيام الخلافة العباسية، بالقياس إلي ما كانوا عليها قبلها، وكثر عددهم وتعاظم أمرهم بمشاركتهم في مجالات السياسة والإدارة والأدب وغيرها، وهو ما أدى إلي مزاحمتهم للشعراء، **فالجاحظ (ت٢٥٥هـ)** ينفرد بالحديث عن الحضور الفاعل الذي كان للكتاب والشعراء في ميدان الرواية والتدوين، إلي جانب الرواة المحترفين

1- العمدة في محاسن الشعروآدابه، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي، القاهرة . ط ١ ، ١٩٣٤م، ج١/ ص٥

2 – نفسه ، ٦/١

3 – العمدة ، ١ / ١٩ – ٢٠

المتخصصين، وهو مجال من مجالات النقد واللغة في التراث الأدبي القديم وتتحكم فيه مقاييس بلاغية ونقدية ولغوية، فأكد أن رواة اللغة والنحو ورواة الأخبار والذين يجمعون الأشعار لا يروون إلا ما يخدم غاية محددة، دون الالتفات إلي الغايات الأخرى، ما عدا رواة الكتاب حيث جعل مكانتهم المتميزة بين غيره من المتأدبين المعنيين برواية الأدب شعره ونثره ، ووضعهم إلي جانب الشعراء المجيدين والنقاد اللغويين في القدرة علي تمييز الكلام الجيد وحسن اختياره علي أساس عناصره الكبرى التي هي الألفاظ والمعاني والأساليب[١] .

والجاحظ يقيم من خلال مختلف نصوصه مفاضلة غير معلنة، بين الكتاب المنشئين وبين غيرهم ممن يشاركهم العناية بالكلام الجيد شعره ونثره، من رواة وشعراء وخطباء وسجاع، يقول الجاحظ: "وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة واستعمال المنثور في خطب الحمالة، وفي مقامات الصلح....وترك اللفظ على سجيته، وعلى سلامته حتى يخرج على غير صنعة ولااجتلاب تأليف ولا التماس قافية ولا تكلف وزن"[٢]

ووضع الجاحظ السجع إلى جانب المزدوج، وهما دون القصيد والرجز، ويوازن بين هؤلاء وأولئك على أساس بلاغي؛ فيقول: "وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الأسجاع ويؤلف المزدوج ويقدم في تحبير المنثور، وقد تعمق في المعاني وتكلف إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهوا، وهو مع قلة لفظه وعدد هجائه أحمد أمرًا وأحسن موقعًا من القلوب وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج"[٣].

وممن يفضلون النثر علي الشعر **أبو سليمان المنطقي (ت٣٨٠هـ)** حيث يقول: "والنظم أدل علي الطبيعة لأن النظم من حيز التركيب، والنثر أدل علي العقل، لأن النثر من حيز البساطة، وإنما تقبلنا المنظوم بأكثر مما تقبلنا المنثور؛ لأنا للطبيعة أكثر منا بالعقل والوزن

1- البيان والتبيين ، تح:عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي١٣٩٥هـ، ج٣ص٣٢٣.

2- نفسه ، ٣ / ٦

3 - البيان والتبيين ، ٤ / ٢٨

معشوق للطبيعة والحس؛ ولذلك يفتقر له عندما يعرض استكراه في اللفظ، والعقل يطلب المعنى؛ ولذلك لا حظ للفظ عنده وإن كان متشوقا معشوقا[١].

وسأله التوحيدي: "فلم لا يطرب النثر كما يطرب النظم ؟ فقال فى الجواب: "لأننا منتظمون – أى ذوو تركيب – فما لاءمنا أطربنا، وصورة الواحد " أى الوحدة " فينا ضعيفة ونسبتنا فيه بعيدة"[٢].

وشارك أبو عابد الكرخي صالح بن علي وعيسى الوزير وابن طراره الجريري أبا سليمان المنطقي في تفضيلهم للنثرعلى حساب الشعر، وتتفاوت حججهم من السطحية والعمق، فمن حجج **أبي عابد الكرخي**: "أن النثر أصل الكلام والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، وبالنثر نزلت الكتب السماوية والوحدة فيه أظهر ... وهو طبيعي في البداءة لأن الناس يتكلمون به ابتداء . وهو غير محتاج إلي الضرورات كالشعر[٣]، وكرر **أبو سليمان المنطقي** أمر ظهور الوحدة في النثر فقال: "النثر أشرف جوهرا والنظم أشرف عرضا؛ لأن الوحدة في النثر أكثر، والنثر إلي الوحدة أقرب، فمرتبة النظم دون مرتبة الوزن، ولأن الواحد أول والتابع له ثان" [٤] كما ذهب **عيسى الوزير** إلي أن النثر من قبل العقل، والنظم من قبل الحس[٥].

وحينما كتب **المرزوقي (ت ٤٢١هـ)** مقدمته على شرح ديوان الحماسة لأبي تمام كانت مشكلة العلاقة بين النظم والنثر إحدي المشاكل الأساسية التى عرض لها، حيث ذهب إلى أن النثر أفضل من النظم، مستدلاً على ذلك بأن الخطابة كانت لدى الجاهلين أهم من الشعر، وأنهم كانوا يأنفون من الاشتهار بالشعر ويعده ملوكهم دناءة، كذلك فإن الشعراء حطوا من قيمة الشعر بتعرضهم للسوقة حتى قيل "الشعر أدنى مروءة السري وأسرى مروءة

---

1 – المقابسات، ص ٢٣١

2 – نفسه ، ص ٢٦١

3 – الإمتاع والمؤانسة ، ص١٣٢/٢ – ٢٣٤

4 – المقايسات ، ص٢٦١

5 – الإمتاع والمؤانسة ، ص ١٣٤/٢

الدني"، وثالث الأدلة على شرف النثر إن الإعجاز بالقرآن لم يقع بالنظم؛ ولهذه الأسباب كان النثر أرفع شأنًا من الشعر ومن ثم تأخرت رتبة الشعراء عن الكتاب[١].

٣- الموقف اللغوي الذي يوفق بين الشعر و النثر:-

إن أبرز من ذهب مذهبا توفيقيا بين الشعر والنثر، وسعى إلى التقريب بينهما بذكرمحاسن كل منهما إلى جانب مساوئه دونما تفضيل أو تحامل أو عصبية لأحدهما على الأخر هو **ابن طباطبا(ت٣٢٢هـ)** ذلك حينما حاول أن يمحو الفروق بين القصيدة والرسالة النثرية في البناء والتدرج واتصال الأفكار يقول: "إن للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتاج الشاعر إلي أن يصل كلامه علي تصرفه في فنونه صلة لطيفة فيتخلص من الغزل إلي المديح، ومن المديح إلي الشكوى، ومن الشكوى إلي الاستماحة بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله " ومقطع القول الفصل أن "الشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول"[٢] .

كما أشار **القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)** إلي ضرورة مراعاة المناسبة بين الألفاظ ومعانيها وبين الأغراض وأساليب التعبير عنها، فليس أسلوب الغزل(في ألفاظه وتراكيبه) كأسلوب الفخر، ولا المدح كالوعيد، ولا الهزل كالجد، بل لابد أن تقسم الألفاظ علي رتب المعاني في الشعر والنثر علي السواء[٣] .

كما عقد **أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)** مناظرة موسعة بين الشعر من جهة والكتابة والخطابة من جهة أخري، وقد تبنى فيها نظرة توفيقية، واحتكم إلى معايير خلقية ونفعية وتاريخية ولغوية، ولم يهتم كثيرًا بالمعيار البلاغي خلافا لكثير من أنصار الشعر وأنصار النثر فقد جعل الكتابة والخطابة فنين مختصين بأمر الدين والسلطان، وعليهما

---

1 – شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشر:أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٧م، ج١ص١٦ – ١٨

2 – عيار الشعر، تح: د.طه الحاجري ود. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٦م، ص ٧٨

3 – الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبوالفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط ٢ ، ١٩٥١م، ص ٢٤

مدار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص .....ولكن له مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، ومن هذه المواضع: الوزن، السيرورة، سهولة الحفظ، طول البقاء فى الذاكرة، وقوة التأثير.... "[1].

كما حاول **ابن سنان الخفاجي(ت٤٦٦هـ)**التقريب بين الشعر والنثر والتوفيق بينهما،حيث خصص فصلاً من كتابه استهله بتحليل التعريف التقليدي للشعر، والتمييز بينه وبين النثر، ونستنتج من تحليله أنه: "إذا كان هذا بينًا فالفرق بين الشعر والنثر بالوزن على كل حال، وبالتقفية إن لم يكن المنثور مسجوعاًعلى طريق القوافي الشعرية"[2]

والأصل في هذه النظرة التوفيقية أن رتب الألفاظ ورتب المعاني في الشعر و النثر على السواء،وأن المعايير البلاغية فيهما واحدة، ولا يفصل بينهما سوى الوزن والقافية.

المبحث الثاني

معايير الموازنة بين النظم والنثر

1 – الصناعتين ، ص١٣٠

2 – سر الفصاحة ، ص١٣٢

عنـد المـبرد

ظهرت الموازنات في العصر الجاهلي كمحاولة أولى لفهم معاني الشعراء، وقدراتهم الإبداعية في قول الشعر، وقامت هذه الموازنات علي بعض المعايير والمقاييس للمفاضلة فيما بين الشعراء، فهذه "**أم جندب**" زوجة امرئ القيس ربما كانت علي وعي ساد وانتشر حول إبداع الشعر، أوعلي وجه أخص بالانسجام الصوتي والتراسل اللفظي في الشعر، حتى دون معرفة بالمصطلحات، حيث سألها زوجها "امرؤ القيس" أن توازن بين شعره وشعر"علقمة" فاقترحت عليهما أن ينشد كل منهما قصيدة فى موضوع واحد، وبحر واحد، وقافية واحدة، فلما أنشداها القصيدتين، قالت لزوجها: "علقمةُ" أشْعرُ منكَ، فقال: كيف؟ قالت: لأنك قلت:

فللسَوطِ ألهوبُ وللساقِ درةٌ وللزجْرِ منه وقعُ أَخْرَجَ مُهذبِ[1]

وجهدت فرسك بسوطك فى زجرك،ومريته فأتعبته بساقك،وقال علقمة:

فأدركهن ثَانِياً من عنانِه يمرُّ كمرَّ الرائحِ المُتَحلَّبِ [2]

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه، ولم يضربه، ولم يتعبه [3] .

فإذا نظرنا إلى هذا النموذج نلاحظ أن كلا من الشاعرين قد وصف فرسه فى حال الجري، فعلقمة وصف المثل الأعلى لجري الفرس، فبالغ إذ جعل فرسه يدرك الصيد، وصاحبه "علقمة" الراكب عليه ثنى عنانه، ولم يضربه بسوط ، ولم يتعقبه،ولم يكلفه فوق طاقته، فطاقته عالية؛ لأنه أقوى الأفراس وأسرعها، أما امرؤ القيس فقد وصف واقع فرسه فبيّن أنه ألهبه بسوطه، وأجهده بزجره ، ولولا الزجر والضرب ما أسرع الفرس

لقد نظرت زوج امرئ القيس إلى الصورة المثلى للفرس، وما ينبغى أن يكون له من قوة وسرعة، فجعلته المقياس الذى تحكم به للشاعر أو عليه، ومن هنا حكمت لعلقمة بن عبدة بالتفوق والشاعرية مما اثار غضب امرأ الفيس وقال لها : " واهو يأشعر منى ولكنك

---

1 – ألهوب:اجتهاد من الفرس في عدوه، درة: إذا غمز الفرس بالساق أسرع، الأخرج: ذكر النعام، المهذب: المسرع في جريه

2 – الرائح: السحاب، المتحلب: الساقط المتتابع

3 – الموشح ، ص٣٤ ، والشعر والشعراء ، ٢٢٤/١وديوان امرىء الفيس ص ٤٠

له عاشقة " ([1]). ويرى **د.عيد شبايك** أن حكم **أم جندب** على **علقمة** بن عبدة بأنه أشعر من امرئ القيس؛ راجع الى بعض الملاحظات. فقد كان مدار المعارضة موضوعًا مخصوصًا هو وصف الفرس في قافية وروي موحدين. كما لاحظ ثانيًا أن المقام الذي وقع فيه التنازع بين الشاعرين هو مقام مشافهة اكتنف قول الشعر كما اكتنف الحكم . فالمبدع والملتقي يوجدان في حيز واحد بحيث تكون الحكومة مباشرة لا وقت فيه للتفكير في الأمر وتدقيق معايير الحكم . ولاحظ ثالثًا أن الحكم لم يخل من أغراض لا صلة لها واضحة بما يكمن في النص من قيم الجمال و ((جهات الحسن)) على حد تعبير السكاكي- حتى أن امرأ القيس علّق على التحكيم قائلاً: "ما هو بأشعر مني ولكنك له عاشقة"[2].

كذلك ظهور فريقين من الشعراء في زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم- فريق وقف بجانبه ومنهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وفريق وقف بجانب قريش ومنهم هشام بن المغيرة، وضرار بن الخطاب، وعبد الله بن الزبعري. [3]

وموقف الفريقين كان مدعاة لأن يقارن الناس أو يوازنوا بين ما قاله هؤلاء وما قاله أولئك، وتقوم الموازنات علي أسس ومبادئ تدعم أحد الفريقين، فهذا هو إبليس حين قارن بينه وبين آدم، فى حوارة مع الله تعالى قالٌ أناَ خَيَرٌ مَنْه خّلقْتنيَ َمِن نِار وًّخلِقتَ َهُ مَن طِ ينٍ "(الأعراف١٢)، قد قدم الدليل علي تفضيله علي آدم عليه السلام، وأعطى بهذا نموذجا للموازنة المنهجية والتي تبدأ بالمقدمات، ويستخدم فيها القياس للخلوص إلي نتيجة أو استنتاج.

ونتقدم خطوة أخرى نجد الموازنات في العصر الأموي قد اتسمت بالموضوعية التي تعتمد علي النص أساسا للدراسة والتحليل، فحينما سُئِل نوفل بن مساحق عن أيهما أشعر :عمر ابن أبي ربيعة أم ابن قيس الرقيات؟، فكان جوابه: حين يقولان ماذا؟ ".

---

[1] – الموشح ص ٣٠

[2] - منظور المتلقي في التراث النقدي عند العريبجث منشور بمجلة كلية آداب المنوفية اصد دار خ اص (٣٨) سبتمبر ٢٠٠٥ ص ١١، ١٢

[3] - الأغاني ١٤٣/٥، البيان والتبيين ٢٧٣/١

وفي هذا التساؤل رغبة في البدء من النص، فهذا الوليد بن عبد الملك يوازن بين جميل وابن أبي ربيعة فقط في أجمل بيت قاله كل منهما في الغزل [1].

وإلي جانب الموازنات بين الشعراء بدت فكرة الموازنة بين الشعر والنثر، وكان لابد من وضع الأسس والقيم الفنية للموازنة بينهما، فمع اعتراف أنصار النثر بما للشعر من مزايا يرفعون النثر عليه درجة، ويرونه أشرف مقاماً وموضعاً ، يقول صاحب صبح الأعشى: "أعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه، ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه، وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، مع طول بقائه على مر الدهور وتعاقب الأزمان ... وسرعة انتشاره ، وبعد مسيره ... وقبوله لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثرة فى النفوس اللطيفة ، والطباع الرقيق ... فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقاماً، وأحسن نظاماً، إذ الشعر محصور فى وزن وقافية يحتاج الشاعر معهما إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير ... وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تُلجِئ إليه ضرورة الشعر، فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شئ من ذلك، فتكون ألفاظه تابعه لمعانيه، ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نقل من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته، ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين على (كرم الله وجهه): "**قيمة كل امرئ ما يحسن**": أنه لما نقله الشاعر إلى قوله :

فيا لائمي دعني أُغَالي بِقِيمتي فقيمةُ كلَّ الناسِ ما يُحْسِنونَهُ

قد زادت ألفاظه، وذهبت طلاوته، وإن كان قد أفرد المعنى فى نصف بيت، فإنه قد احتاج إلى زيادة مثل ألفاظه مرة أخرى، توطئة له فى صدر البيت، ومراعاة لإقامة الوزن... "[2] .

---

1 – الأغاني ، ١١٨/١

2 – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي ، ١/ ٥٨

وليست هذه المفاضلة فى الواقع مبنية على أساس دقيق ، فإن الشعر الرائع الذي يوازن بينه وبين النثر الرائع ليس بهذا الذي تزداد فيه الألفاظ من غير حاجة، أو يرتكب فيه التقديم والتأخير المفسدان للمعنى، الجالبان للتعقيد والغموض، أو ترتكب فيه ضرورات تنقص من موسيقى الكلمة، أو يؤتى فيه بالألفاظ الخشنة أو السوقية. كما وازن بعض النقاد بين الكتابة والشعر من حيث مكانتهما الاجتماعية فى العصر القديم، فرأى الكتابة، ومن فنونها الكتابة السلطانية بخاصة، عليها يدور أمر الحكومة، وبها تنتظم شئون الدولة؛ ولهذا كثر احتياج أولى الأمر إلى الكتاب، وكان للكتاب مكانة اجتماعية كبرى فى نفوس الشعب والحكام لهذا السبب، وليس للشعر هذه المنزلة الاجتماعية ... وهذا الأمر بعيد عن فنية النص الأدبي(شكلا ومضمونا)، فنحن نحتاج إلى أسس فنية جديرة بالنظر فى شأن الموازنة بين الشعر والنثر، وهذا ما حاول المبرد فعله من خلال كتابه "البلاغة" حيث وضع المعايير الفنية والأصول البنائية والتعبيرية للموازنة الموضوعية بين الشعر والنثر ومنها:-

أولا :القيمة البلاغية :-

بدأ **المبرد** جوابه عن سؤال"**أحمد بن الواثق**"عن أفضل البلاغتين؟ـ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب و الكلام المنثور والسجع ـ بتحديد معايير البلاغة، فقال : "إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضده شكلها، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول "([1]) .

فالمبرد يرى البلاغة في:

١ـ إحاطة القول بالمعنى:

أي أن ترتيب الألفاظ يجب أن يقترن بترتيب المعاني؛ لأن المعاني هي الأساس الذي يجب أن يراعي عند نظم الكلام، فتأتي الألفاظ لتستوعب هذه المعاني، يؤيد ذلك قول **الجرجاني:** "إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلي أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم

1 – البلاغة ، ص ٨٥

بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[1].وهذا ما عناه المبرد من إحاطة القول بالمعنى.

والمبرد يحتكم إلى صحة المعنى ويحتكم إليه، فيقول: "وهذا باب إنما يُصلحه ويفسده معناه، فكل ما صلح به المعنى فهو جيد، وكل ما فسد به المعنى فمردود"([2])، ويقول. "فبالمعنى يصلح اللفظ ويفسد"([3]). وهذه إشارة إلى أهمية المعنى وإحاطة القول به.

٢- اختيار الكلام:

أي حسن اختيار الألفاظ ودقتها لدلالتها علي المعاني، فعلى المبدع أن يتخير فى خطابه أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأبعدها عن ألفاظ أهل الجفاء والغلظة، كما تطلب **المبرد** في اللفظ أن يتحقق فيه عنصرالخفة والرقة، فقال عن بيت امرئ القيس: (من الرجز)

عَجِبتُ والدهرُ كثيرُ عجبه من عنزي سبني لم أَضْرِ بْهْ([4]) أراد: لم أضر به ، يا فتى ، فلما أسكن الهاء ألقي حركتها علي الباء، وكان ذلك في الباء أحسن ، لخفاء الهاء" ([5])؛ وذلك لسهولة نطق الكلمة، واستراحة الأذن عند سماعها ، كما أشار **المبرد** إلى كثير من اللمحات الصوتية التي يقوم على أساسها سهولة النطق وثقله([6]) ، وبلغت دقة حسه اللغوي وذوقه البلاغي أن يقول: لو كان هذا اللفظ مكان هذا اللفظ لكان أجود وأحسن ، وذلك بصدد قول الشاعر: (من المتقارب)

فذاك القصاص وكان التقا صّ فرضا وحتما علي المسلمينا

ويرى المبرد أنه لو قال:"وكان القصاص فرضا" لكان أجود وأحسن، ولكن قد أجازوا هذا في هذه العروض، ولا نظير له في غيرها من الأعاريض"([7]).

---

1 – دلائل الإعجاز ، ص ٣٨

2 – المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب . بيروت، ٣١٠/٤-٣١١

3 – نفسه ، ٥٤٢/٢

4 – ديوان امرئ القيس ، ص ٢١٣

5 – الكامل ، ١٦٢/٢

6 – المقتضب ، ج١،ص٢٠٦،ص٢١٧

7- نفسه ، ٢٦/١

والـشاهد الـسابق ورد فـي جـواز التقـاء الـساكنين – كمـا فـي قولـه تعـالى: "...وَلاَ الضَّالِّينَ"(الفاتحة من آية٧)، وقد استشهد به **المبرد** عند تفسيره لقولهم: هذه حمّارّة القيظ، فالقيظ الصيف، وحمّارته اشتداد حرّه واحتدامه، وحمّارّة مما لايجوز أن يحتج عليه ببيت شعر؛لأن كل ما كان فيه من الحروف التقاء ساكنين لا يقع في وزن الشعر إلا في ضرب منه يقال له المتقارب([1])، فعلة الحذف (فعولن) تصير (فعو) لازمة في أعاريض الشعر العربي ما عدا بحرالمتقارب التام فهي غير لازمة([2]).

٣- حسن النظـم :-

قال ابن منظور: "النظم: التأليف، والتنظيم مثله، وفيه نظمت الشعر ونظمته([3])، وقال الزمخشري:"نظمت الدر، ونظمته، ودر منظوم ومنظم،ومن المجاز نظم الكلام وهذا نظم حسن وانتظم كلامه وأمره"([4]).

وقد جاء في مواضع متفرقة من "الكامل" حديث طيب عن النظم، فقد ضرب له **المبرد** أمثلة كثيرة وحللها، وقارن كثيرا بين نظم ونظم، وبين مزية أحدهما علي الآخر، وقد كان للمبرد في هذا آراء نذكر منها:-

أ- أنه أشار إلي أن صاحب النظم بحاجة إلي **اليقظـة**، فيضم الإلف إلي إلفه، ليكون التناسب في الكلام، فقد نقل عن الجاحظ أمثلة لتكون معيارا لكل من النظم الجيد أو النظم الردئ، ومنها قوله(وخبرت أن عمر بن لجأ قال لابن عم له: أنا أشعر منك! قال: ولم؟ قال: لأني أقول البيت، وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه(يعني شدة التفاوت في شعر ابن عمه، واستواء شعره هو) وأنشد عمر بن بحر: (من الطويل)

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعى في القريض دخيل[5]

1- نفسه ، ٢٦/١

2- الحكم هنا على هذا البيت؛لأن القصيدة ليست موجودة،ونسبةالبيت لشاعر معين غير معلومة

3 - لسان العرب ، مادة "نظم"

4 - أساس البلاغة ، مادة "نظم"

5- والبيت منسوب في الكامل لأبي البيداء الرياحي ، ٢١٣/١

وبعرالكبش يقع متفرقا"[1].فقد ضرب شعر"عمر بن لجأ"مثالا للنظم الجيد لتلاؤمه، وذلك ناشئ عن الأناة والروية، كما ضرب شعر ابن عمه مثالا للنظم الردئ؛ ولذا شبهه ببعر الكبش؛ لأنه يقع متفرقا.

ب- كما كشف المبرد عن ثمرة كل من النظم الجيد والردئ، عندما أورد قول دعبل بن علي الخزاعي : (من الطويل)

سأقضي ببيت يحمد الناس أمره ويكثر من أهل الرواية حامله

يموت ردئ الشعر من قبل أهله وجيده يبقى وإن مات قائلـه[2]

فالنظم الجيد . وما يتميز به من جودة اللفظ، وحسن المعنى، وقوة السبك ،واستواء النظم . يحمده الناس، ويكثرون من حفظه وروايته، ويبقى خالدا وإن مات قائله.

جـ- وضرب أمثلة كثيرة للنظم الجيد إلا أن هذا النظم عنده درجات، فهو يقول: "فمن ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة الرصف،قول الحطيئة: (من الطويل)

وذاك فتى إن تأته في صنيعه إلي ماله لا تأته بشفيع[3]

ويقول: "وكان إسماعيل بن القاسم لا يكاد يخلي شعره مما يقدم من الأخبار والآثار، فينظم ذلك الكلام المشهور، ويتناوله أقرب متناول، ويسرقه أخفى سرقة، فقوله:

"**وأنت اليوم أوعظ منك حيا**" [4]

إنما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حين مات، فإنه قال في ذلك الوقت: "كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه بالأمس". فالنظم بهذه الألفاظ السهلة يجعل من يسمع البيت لا يشك في أنه من ابتكار الشاعر، وكأنه لا أخذ ولا سرقة فيه .

---

1 - الكامل ، ٢ / ١٦٠.

2 - نفسه ، ٢ / ١٠.

3 - نفسه ، ٢ /١٠ ، والبيت في ديوان الحطيئة ص٧٣ .

4 - صدر البيت : " وكانت فى حياتك لى عظات " ، الكامل ٢ / ١١

وضرب مثالا للتشبيه المفرط، وبين أنه خرج في كلام جيد، ثم جعل لجودة ألفاظه، وحسن رصفه، واستواء نظمه في غاية ما يستحسن وهو قول النابغة في حصن بن حذيفة الفزاري وأوله: (من الطويل)

يقولون"حصن" ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح[1]

فالنظم الجيد عند المبرد يكون باختيار الألفاظ المشاكلة لجودة المعاني مع استواء النظم والتئام الكلام، فلا يكون بينهما تنافر، ولا يبرأ بعضها عن بعض، بل يأخذ بعضها بأعناق بعض، حتى يحدث التماسك والاتصال مع شمول في المعنى واختصار في اللفظ، ولا يتم ذلك إلا بحسن التأليف والنظم.

٤ـ مراعاة الملائمة بين اللفظ والمعنى :

أي أن تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها، ولابد أن يواكب المعنى اللفظ، وأن ينسجم معه، وأن يدل اللفظ علي معناه دلالة واضحة، وهذا يفرض علينا سؤالاً هو: هل عناية المبرد باللفظ تطغى علي عنايته بالمعنى؟ أم العكس؟

وللإجابة عن هذا السؤال نلاحظ أن **المبرد** قد ركز علي بيان أهمية المعنى لقول: "فرأيته يميل إلي المعنى اللطيف[2]، ويشير بقوله : " وأحسن ماقيل في هذا المعنى[3]، وقد تكلم عن المعنى الظريف في قول جميل بن معمر في الشيب: (من الكامل)

ما صائب من نابل قذفت به يد وممر العقدتين وثيق

بأوشك قتلا منك يوم رميتني نوافذ لم تعلم لهن خروق

وأن المعنى الظريف هو الذي يمضي مع الحياة ويتمثله الشعراء[4]، وما يتجه من نقده إلى الألفاظ قوله في شعر ساقه لرجل من بني تميم منه:

ألبان إبل تَعِلّةَ بن مسافر مادام يملكها عليّ حرام

فقد وصفه المبرد بأنه كلام فصيح جدا[5].

---

1 – ديوان النابغة ، ص١٩٠.

2 – الكامل ، ٢ / ٧١

3 – نفسه ، ٢ / ٥٧

4 – نفسه ، ٢ / ٧١

5 – نفسه ، ١/ ٣٧

ومما جمع فيه بين الألفاظ والمعاني في الاستحسان قوله: " ومما يستحسن لفظه، ويستغرب معناه، ويحمد اختصاره قول أعرابي من بني كلاب: (من الطويل)

فمن يك لم يغرض فإني وناقتي بحجر إلي أهل الحمى غرضان

تحن فتبدي ما بها من صبابة وأخفى الذي لولا الأسى لقضاني[1]

يريد لقضى علي ، فأخرجه لفصاحته وعلمه بجواهر الكلام أحسن مخرج[2].

ولعل ما يهدف إليه المبرد بيان ما تتطلبه البلاغة من معنى قريب ولفظ رميث، يتضح ذلك في تعليقه علي قول الفرزدق: (من الكامل)

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار[3]

فهذا أوضح معنى،وأعرب لفظ، وأقرب مأخذ[4].كما ذكرالمبرد نموذجا من شعر"ابن ميادة"استحسنه لصحة معناه، وجزالة ألفاظه، وكثرة تردد ضربه من المعاني بين الناس"[5]

فالمبرد يحرص علي انسجام اللفظ مع المعنى حتى يؤدي النص وظيفته ومهمته ، وهو لا يهتم بأحدهما على حساب الآخر ، فحينما يجد في اللفظ جمالا يلفت النظر إليه، وحينما يرى في المعنى ما يشد القارئ والسامع فينبه إليه، وقد يجد فيهما معا ما يطرب ويعجب ، فلا يتركه يمر إلا ويضع يد قارئه عليه.

٥- تقريب البعيد:

يرى **المبرد** أن من المعايير الفنية اللازمة للموازنات تقريب البعيد، إي وضوح الكلام، وقد كان المبرد يمتدح الكلام لهذا السبب ،فيقول: "فهذا كلام واضح، وقول عذب"، وفي موضع آخر يقول: "وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة، ونبه فيه بفطنته علي ما يخفى علي غيره، وساقه برصف قوى واختصار قريب"[6] .

فقال عن بيت قيس بن معاذ : (من الطويل)

---

1 – البيتان لأعرابى من بنى كلاب موجود فى اللسان والتاج مادة (غرض ، قضى)

2 – الكامل ، ٢ / ١٥١

3 – ديوان الفرزدق ٣٧٢/١، ولسان العرب مادة (نهر)، وأساس البلاغة مادة (صيح).

4 – الكامل ، ١ / ٢٠

5 – نفسه ، ١ /٤٥

6 – نفسه ، ١ / ٢٩٤

أشوقا ولما تمضي لي غير ليلة رويد الهوى حتى تغب لياليا

هذا من أحسن الكلام، وأوضحه معنى[١] .

كما أعمل **المبرد** ذوقه البلاغي في تذوقه للشعر، وأنه يميل إلي الشعر الحسن السهل، فيصل بدقة فهمه وثاقب نظره إلي أن يكون قريب المأخذ،من ذلك قول مخيس بن أرطاة الأعرجي: (من الوافر)

عرضت نصيحة مني ليحيى فقال غششتني والنصح مر[٢]

وهذه النصوص بينها شبه كبير كما ترى، حيث يجمعها اختيار الألفاظ، ووضعها في مواضعها،وإيراد المعنى باللفظ المعتاد فيه،ووضوح التراكيب،وقرب مأخذها.

٦- حذف الفضول:

وهو من المقاييس التى نبه **المبرد** إليها ليكون الكلام بليغا، لأن البلاغة مرادفة للإيجاز، والإيجاز اقتصاد في اللغة، وتكثيف في الخطاب الأدبي، تكمن فيه قدرة الأديب على تركيز أفكاره، والتعبيرعنها بأوجز لفظ دون إخلال بالمعنى، وقد فضل العرب هذا النمط الأسلوبي ليحفظ كلامهم، فهم يكتفون بالإشارة الدالة، واللمحة الخاطفة، ثقة بذكاء السامع، وقد اعتبروا هذا لب البلاغة، قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز، فقال: وما الإيجاز؟ قال: "حذف الفضول وتقريب البعيد"[٣] والواقع أن لهذا أسرارا، فهو دال علي امتلاء اللفظ، وقوة الحبك، ويزيد في الكلام علي طريق الإيحاء؛ لأنه يترك علي أطراف المعنى ظلالا خفية يرتادها الذهن والخيال، ويفتح للفكر والخيال آفاقا تتمتع وتتلون، فله سحر يأخذ الألباب، وشعر يجري في الشعور قال المبرد: "وقيل: خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره" .

ويورد من النصوص ما يكشف عن صور الإيجاز، وفضله في الكلام، كقوله: "حكمك مسمطا" فإعرابه: لك حكمك مسمطا، واستعمل هذا الحذف استخفافا، لعلم

---

1 – الكامل ، ١ / ٢٩٥

2 – نفسه ، ١ / ٤٣

3 – ويقول المبرد :" وقد يقع الإيحاء إلي الشيء فيغني ذووي الألباب عن كشفه ، كما قيل لمحة دالة ، ويعتبر المبرد اللمحة الدالة من أقرب أنواع الاختصار مقتديا في ذلك بما قاله صحار العبدي لمعاوية حينما سأله معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ فقال صحار: الإيجاز." انظر: البيان والتبيين للجاحظ ٩٦/١

السامع بما يريد القائل، كقولك: الهلال والله، أي هذا الهلال.وأغني عن قوله: "هذا" القصد، والإشارة[1]، فقد أشار إلي المحذوف، وقرينته، وسر الحذف الاستخفاف وهو ما يفهم من قوله: (استخفافا). وهذان مثالان للحذف، الأول من قبيل حذف الخبر، والثاني من قبل حذف المبتدأ.

إذن يتضح لنا مما سبق أن البلاغة عند المبرد تعني تخير الألفاظ والتئامها، فلا يكون بينها تنافر، ولا يبرأ بعضها عن بعض، بل يأخذ بعضها بأعناق بعض، حتى يحدث التماسك، والانسجام مع شمول المعنى، واختصار في اللفظ[2]، والملائمة بينها وبين المعاني مع حسن النظم، وتوضيح لكل ما هو بعيد .

هذه **المعايير** ليست خاصة فنية للشعر وحده، وإنما هي معايير فنية لما يمكن تسميته بالكلام البليغ، وعلي ذلك فليست هناك تفرقه بين الشعر وغيره، ولا مراعاة لفاعلية الخلق الشعري ولا لتمايز خطيب، **فالمبرد** هنا لا يفرق بين بلاغة الشعر وبلاغة النثر، بل يضع شروطا لابد من توافرها في الكلام البليغ سواء أكان شعرا أم نثرا، غاية الأمر أنه إن استوى هذا في الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعرا فلم يفضل أحد القسمين صاحبه ، فصاحب الكلام المرصوف أحمد لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه، وزاد عليه وزنا وقافية .

وهذا يسلمنا إلي المعيار الثاني من معايير الموازنة بين الشعر والنثر عند المبرد، وهو الإيقاع الموسيقي(الوزن والقافية).

ثانيا: الوزن والقافية :-

لم يحاول النقاد الأوئل كابن سلام(ت ٢٣٢هـ) وابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) تقديم تعريف محدد للشعر، وإن ذكر الأول في كتابه "طبقات فحول الشعراء" إنه صناعة كسائر

---

1 – الكامل ، ٩٢/٢

2 – لم ينس المبرد فضل الإطناب، وماله من أثر فى الكلام ، ولذلك فإن كلام العرب لا يخلو منه ، شأنه فى ذلك شأن الإيجاز، ففى صدر كتابه الكامل ، يقول : " من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخم" راجع: الكامل ١ /١٧

الصناعات، وتحدث الثاني في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء" عن قضايا الإبداع وأوقاته، والطبع والتكلف، وضروب الشعر ودوافعه، وغير ذلك،حتى إذا تم جمع اللغة والتدوين ونشطت الدراسات اللغوية، إلى أن قدم قدامة تعريفا للشعر بأنه: (قول موزون مقفي يدل علي معنى)[١] .

وكأن الوزن والقافية هي مميزات لغة الشعر عن سائر أصناف الإبداع، واعتمد النقاد عليها أساسا للتفريق بين لغة الشعر ولغة النثر، ونظروا إليهما باعتبارهما "قيدا صناعة لا وسائل تعبير"؛ لذلك كان الشاعر أبلغ من الناثر "إذا صادف شروط الفصاحة وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة"[٢].

سأل **أبو حيان** صديقه مسكويه عن مرتبة كل من النظم والنثر، فكان مجمل جوابه: "أن النظم يزيد علي النثر بالوزن، فهو أفضل من هذه الجهة، أما إذا اعتبرت المعاني فإنها مشتركة بينهما"[٣].

وقال **ابن رشيق:** "الوزن أعظم أركان الشعر، وأولاها به خصوصية"[٤] وقال ابن طباطبا عنهما: "فالشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول"[٥] ، وليس هناك فرق بين طبيعة كل منهما وعلي الصانع فقط أن يزيد شيئا فيها "القصائد" فتنحل أو تنقض منها "الرسائل وفنون النثر" شيئا فتنتظم"[٦]. فليس هناك في رأيهم فرق بين طبيعة كل منهما سوى هذه القيود، ففي" الشعر والنثر جميعا تقع البلاغة أوالعِيّ، والإيجازأوالإسهاب إلا أن البلاغة والإيجاز إذا وقعا في الشعر والقول، قضى للشاعر بالفلج، والعي والإسهاب إذا وقعا في الشعر والقول، كان الشاعر أعذر، وكان العذر عن المتكلم أضيق وذلك لأن الشعر

---

1 – نقد الشعر ، ص ٣

2 – إعجاز القرآن ، ص ١٦٢

3 – تاريخ النقد الأدبي ، ص ٢٣٤

4 – العمدة ، ١٣٤/١

5 – عيار الشعر ، ص ٨١

6 – الصناعتين ، ص ٢١٦

محصور بالوزن، محصور بالقافية فالكلام يضيق علي صاحبه، والنثر مطلق غير محصور فهو يتسع لقائله"[١]؛ ولذلك أباحوا للشاعر خاصة دون الناثر ما يسمى بالضرورة، يقول **ابن المدبر**: "ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأن الشعر موضع أضرار، فاغتفروا فيه الأغراب وسوء النظم، والتقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار)[٢]، ولكنهم تجاوزا هذه الخصوصية وتطلبوا في لغة الشعر خلوها من هذه الضرورات (فالمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلامته وسهولته واستوائه وقلة ضروراته)[٣] بل عدمها أصلا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فنجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه"[٤] فالمثل الأعلى للأسلوب في الشعر هو أسلوب النثر (فالأشعار المحكمة المتقنة – عند ابن طباطبا – هي التي خرجت خروج النثر سهولة وانتظاما فلا استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها)[٥] .

وبناء علي ما سبق نستطيع القول بأن معظم النقاد العرب القدامى لم يروا أية خصوصية للغة الشعر سوى الوزن والقافية في الغالب .

ويتفق معهم بعض النقاد الغربيين، مثل **كولردج** الذى يرى "أن الوزن هو الشكل المميز للشعر، وصفته الجوهرية"[٦]

فالوزن ومقتضياته الموسيقية ظل مرجعا أساسيا عند المبرد في الموازنة والمفاضلة بين النظم والنثر، فالشعر عند المبرد أفضل بسببه، وكل ذلك ينسجم مع الثقافة الأدبية واللغوية

---

1 – البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب، تح د. حفني محمد شرف ، ص١٢٧

2 – الرسالة العذراء: لابن المدبر، تحقيق زكي مبارك ، دار الكتب المصرية، ص١٩

3 – الصناعتين ص ١٦٥

4 – نفسه ، ص ٥٥

5 – عيار الشعر ، ص ٤٨

6 – كولردج : د. مصطفى بدوى ، دار المعارف القاهرة ط١ ، ١٩٥٨م ، ص١٧٨

التي تشبع بها وانقطع لدراستها وتدريسها، ويعلل المبرد لهذه المفاضلة بأن الوزن يحمل علي الضرورة، والقافية تضطر إلي الحيلة"[1] .

٣- سرعة البديهة :

فالمبرد يرى فضل الشعر البليغ علي النثر البليغ، لما في الشعر من عنت ومجاهدة بسبب الوزن والقافية، فالشاعر يبذل قدرا أكبر من الجهد حتى تلين له القافية، ويتأتى له الوزن، وهو جهد يبذل في الشكل تضطره إليه المعالجة الشعرية، وقد يستعصي عليه الوزن، وتحرن به القافية، فيبقى شهرا وربما قضى الوقت الطويل، والصورة التي يود التعبير عنها مرسومة في خياله، ولكنه يعجز عن نظم بيت واحد في قصيدة طويلة، فمن هذه الزاوية وحدها كان الشعر أحق بالحمد من النثر عند المبرد.

وهذا الأمر يسلمنا إلى المعيار الثالث وهو **الطبع** فقد يكون الرجل له طبع فى تأليف الرسائل والخطب ، ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر، وكان عبد الحميد الكاتب وابن والأسجاع المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله، وقيل لابن المقفع فى ذلك، فقال: "الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيئني لا أرضاه" وهذا الفرزدق كان مشتهراً بالنساء ... وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور ... وجرير عفيف لم يعشق أمرأة قط، وهو مع ذلك أغزل الناس شعراً، وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعهما ... وفى الشعراء من يخطب، ومنهم من لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء فى قرض الشعر[2].

وهذا الأساس يعود إلي **طبيعة المبدع** ومقدرته اللغوية في صياغة الأساليب وتركيب الكلام، فالتمايز بين الأجناس الأدبية هنا لا يكون بالنظر إلي طبيعة الجنس الأدبي الذي قدمه، وإنما يكون ذلك بالمقدرة الفنية والموهبة الخاصة وسرعة البديهة وقلة المعاناة . وهذه

---

1 – ا لبلاغة ، ص ٨١

2 – البيان والتبيين ، ١٥١/١

الصفات تعود علي المبدع وملامح شخصيته الخلقية والخلقية، يقول أبو هلال العسكري: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وأولى آلات البلاغة جودة القريحة، وطلاقة اللسان، وذلك من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها"[١]

من هنا ينبه **المبرد** إلي ما هو أقل من ذلك مما يجب مراعاته في البلاغة وهو معتبر في عرف البلاغيين، ويعني بذلك سلامة الكلام من الصفير، فكما كان للشعر فضل علي النثر بفعل الوزن والقافية، فالكلام الخالي من الصفير ينزله فوق الكلام الذي يعوزه الصفير، فالأذن تتذوق فتستحسن وتستهجن، وتنقل للنفس إحساسا بالحسن أو القبح، بالقبول أو النفور مما يؤثر في بلاغة الكلام وجودته، يقول **المبرد** في هذا الشأن[٢]: "وقد كان البلغاء تتفقد ما هو أقل من هذا ، فمن ذلك أن الجمحي[٣] خطب خطبة، فأحسنها وأجادها، وكان بين ثنيتيه فرق، وكان يصفر إذا تكلم، فأجابه "زيد بن علي بن الحسين" بكلام في وزن كلامه، وحسن نظامه، غير أنه تقدمه في السمع بالسلامة من ذلك الصفير، فقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر : (من الكامل)

قلت قوادحها وتم عديدها فله بذاك مزية لا تنكر

وقد يعود ما لاحظه **المبرد** في القرن الثالث الهجري إلي ما ذكره الجاحظ: " إن "خلاد بن يزيد الأرقط" خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه "زيد بن علي بن الحسين" بكلام في جودة كلامه، إلا أنه فضله بحسن المخرج ، والسلامة من الصفير ، فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سلامة لفظ زيد لسلامة أسنانه، فرق في كلمة له :

قلت قوادحها وتم عديدها فله بذاك مزية لا تنكر "[٤]

---

1 – الصناعتين، ص ٢٠

2 – البلاغة ، ص ٨١

3 – الكامل ، ٥٤٨/٣

4 – البيان والتبيين ، ٥٨/١

كما استقر مفهومه عند **الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)** في حديثه عن الفصاحة حيث ذكر شروطها المعروفة في الكلمة بأن تبرأ من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس اللغوي، ثم أردف ذلك بقوله: "وقيل هو خلوصه مما ذكر ومن الكراهة في السمع بأن تمج الكلمة، ويتبرأ من سماعها، كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، فإن اللفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه، ومنها ما تكره النفس سماعه[١]

فالمتمكن من سلامة الحروف يحسن مخارج الكلام، وهو يفضل علي من لم يستطع ذلك وإن أجاد .

كما جعل **المبرد** سرعة البديهة وقلة المعاناة مما يفضل من كلام علي آخر،فمما يفضله المبرد لتخلصه من التكلف،وسلامته من التزيد،وبعده من الاستعانة،قول أبي حية النميري[٢]: (من الطويل)

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم
ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

فهذا كلام واضح، برئ من عيوب التكلف وزيادة اللفظ علي المعنى لغير فائدة، ومن ثم الاستعانة، ويشرع المبرد في بيان أوجه عيوب الكلام التي تبعد صاحبها عن الفصاحة والبلاغة، ومنها :

١ـ فأما **الاستعانة** فقد بينها بقوله: أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه؛ ليصحح به نظما أو وزنا إن كان في شعره، أو ليتذكر به ما بعده إن كان في كلام منثور كنحو ما تسمعه في كثير من كلام العامة مثل قولهم: "ألست تسمع؟"، "أفهمت؟"، و"أين أنت؟" وما أشبه هذا، وربما تشاغل بفتل إصبعه، ومس لحيته وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح، وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء في شعره: (من الطويل)

1 -الإيضاح ، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، مكتبة الحسين ،١٩٤٩م، ١ / ٨٩
2 – الكامل ، ١ / ٢٩

ملىء ببهر والتفات وسعلة ومسحةعثنون[١]وفتل الأصابع

وقال رجل من الخوارج يصف خطيبا متهم بالجبن، وأنه مجيد لولا أن الرعب أذهله :

نحنح زيد وسعل لما رأى وقع الأسل

ويلمه إذا ارتجل ثم أطال واحتفل [٢]

فالغرض من **الاستعانة:** محاولة المتكلم صرف انتباه المستمع إلي أن تسعفه البديهة بالكلام، كنحو ما تسمعه من كثير من كلام العامة قولهم:ألست تسمع؟ أفهمت؟ أين أنت؟ وما أشبه هذا، وقد يكون بالعبث باللحية أو بفتل الأصبع أو التنحنح ... إلخ[٣].

و**المبرد** يستفيد من الجاحظ في هذا الموضع ويتأثر به ،غير أن فيه زيادة وهى الحشو المتصل بوزن الشعر .

٢- ومما عابه المبرد: **التزيد:** وهو زيادة اللفظ علي المعنى، ومازاد لغير فائدة فإنه معيب وورود، وهذا ما عناه المتأخرون **بـ"التطويل والحشو"**[٤].

٣- فأما **التكلف** فإنه معيب عند علماء النقد والبلاغة، وذلك أن المتكلف همه اللفظ ولو معيبا، و يكثر من المحسنات ويبالغ فيها علي حساب المعنى .

ومظاهر التكلف كثيرة، قال المبرد: "وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره، فإن انعطفت عليه

1 - أنشده الجاحظ في البيان والتبيين ٤٢/١ ، ولم ينسبه لقائل . العثنون : بضم العين : اللحية ، أوبعض أجزائها – اللسان (عثن)

2 – الكامل ١/ ٣٠، والبيتان أنشدهما الجاحظ في البيان والتبيين، ونسبهما للأشل الأزرقي ، ٤١/١ .

3 – البيان والتبيين ، ١ / ٢٢

4 – الايضاح ، ٣ / ١١٣

وقال ابن سنان:"التطويل هو أن تعبر عن المعانى بألفاظ كثيرة كل واحد منها يقوم مقام الآخر،فأى لفظ شئت من تلك الألفاظ حذفته وكان المعنى على حاله"سر الفصاحة ص٢٠٧

أماالحشو:سماه قوم"الاتكاء"،قال قدامة:"هو أن يحشى البيت بلفظ لا يحتاج إليه لإقامةالوزن" للمزيد من التعريفات والشواهد:راجع: "معجم المصطلحات النقدية" لأحمد مطلوب ٣٤١/١

جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه، وإن شاء قائل أن يقول بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ومجاورته له أشهر كان ذلك له، ولكن يغتفر السيئ للحسن والبعيد للقريب"[1]. .

وأما **الطبع** فهو جريان المتكلم علي سجيته وطبعه، دون مبالغة تكون علي حساب المعنى. فالبلاغة عند المبرد تعني: (تخير اللفظ، والملائمة بينها وبين المعاني، مع حسن النظم، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال) .والبليغ هو المتمكن من سلامة الحروف ومخارجها أي طليق اللسان وهو يتكلم علي سجيته دون عناء أو غموض، أي سرعة البديهة.

ويعد هذا المعيار النقدي وليد عصر المؤلف وأثر من آثار ثقافته الجديدة (القرآن الكريم والحديث الشريف)، فلقد ذم القرآن التكلف ونهى عنه، وحسبك في ذمه أن الله عز وجل أمر رسوله الكريم بالتبرأ منه في قوله تعالى: " قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)" [2]. فالبلاغة تنفر من التقعر والتكلف في القول ، فإن ذلك مما ينافي الطبع ، ويحول بين الكلام وبين وصوله إلى النفس؛ لأنه لم يصدر عن طبع سليم وسليقة صافية.

المبحث الثالث

الجانب التطبيقي

لمفهوم الموازنة عند المبرد

---

1 – الكامل ، ٢٧/١

2 – سورة ص أية ٨٦

١- بين الأشكال والنظراء.

٢- بين أقوال الرسول وأقوال العرب الفصحاء .

٣- بين نظم القرآن ونظم الشعر .

يبدأ المبرد في تطبيق المعايير الفنية التي وضعها للموازنات الأدبية، ويقسم الموازنات علي **ثلاث درجات** :-

الدرجة الأولى :- بين الأشكال والنظراء[١] :

حيث اتجه **المبرد** إلي معالجة الموازنات بين النصوص الأدبية "الشعرية منها والنثرية"، والتي ترد في معنى واحد أو متقارب مع بيان اختلاف الصياغة والنسق، فالمعنى

1-هذا المصطلح ورد في كتاب البلاغة للمبردويقصد به "الأشباه والنظائر"،راجع البلاغة ص ٧٦

الواحد إن جاء به الشاعر في بيت واحد، كان ذلك أبلغ مما لو جاء به في بيتين، ويستشهد المبرد علي ذلك بقول الأعشى[١]: (من المتقارب)

وتبرُد برْد رِدَاء العرو سِ بالصّيف رقرقت فيه العَبيرَا

وتسخُن ليلة لا يستطيـ ع أن ينبحَ الكلبُ إلا هريرَا

فتقُبل هذا الكلام، واستحسنه، ثم قيل في عيبه: إنه أتى به في بيتين، وطول به الخطاب.

وأجود منه قول طرفة: (من الرمل)

يطردُ البَرد بحَر ساخنٍ وعَكيكَ القيظ إنْ جاء بقُر[٢]

وقيل: هذا أجمع وأخصر[٣].

وأرى أن الأعشى وإن طال لفظه وكثر، إلا أنه جاء بزيادة معنى، يتضح ذلك من قوله:"برد رداء العروس، بالصيف رقرقت فيه العبيرا"، كما أن إيجاز طرفة قد يكون مخلا بتقصيره عن أداء المعنى المرجو منه، ناهيك عن التكرار كقوله:"بحر، عكيك القيظ"، والغموض في قوله:"عكيك وبقر". والأصل في هذا مراعاة المطابقة؛ لبيان فضيلة الإيجاز والإطناب.

كما نص صاحب "البرهان في وجوه البيان"على هذا المعيار، فقال: "وأعلم أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذي يريده، أو المعنيين في بيت واحد كان في ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك في بيتين، وكذلك إذا أتى شاعران بذلك، فالذي يجمع المعنيين في بيت، أشعر من الذي يجمعهما في بيتين....."[٤]

كما بين **المبرد** فضل الشمول والإيجاز في بلاغة الكلام، واستشهد علي ذلك بقول امرئ القيس: (من الطويل)

٢- ديوان الأعشى ص١٤٥ (الصبح المنير في شعر أبي بصير) تحقيق جاير ١٩٢٧-م

٣- ديوان طرفة بن العبد (في العقد الثمين) ص٥٣ تحقيق أهلوت ،لندن ١٨٧٠ م . و العكيك : شدة الحر.

٤- "أجود،أجمع،أخصر" أحكام نقدية عامة تكشف ملامح شخصيةالمبرد النقدية.

4 - البرهان في وجوه البيان ، لاسحاق بن وهب، ص ١٤٦

سماحة ذا وبِرَّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سَكِرْ[1]

فامرؤ القيس قد جمع في هذا البيت الواحد أوصافا كثيرة، كما وصف أنه مستمر في جوده في حالتي الصحو والسكر، والمبرد يفضل هذا البيت علي قول عنترة:

(من الكامل)

فإذا شربتُ فإنني مستهلك ما لي وعِرضي وافر لم يُكْلَمِ

وإذا صحوتُ فماأقصِّرعن نَدى وكما علمتِ شمائلي وتَكَرُّمِي[2]

لأن البيتين يحملان معنى بيت امرئ القيس السابق، غير أن عنتره أطنب في قوله، فأدى المعنى في بيتين؛ فاستحق منزلة دون الأول الذي اتصف بالإيجاز.

وهذا المعيار جار على الأصل المعمول به عند البلاغيين، وهو حَمدُ الإيجاز، والدلالة بقليل اللفظ على كثير المعنى، حتى إنهم عدوا الإيجاز من البلاغة، بل ربما قالوا : إن البلاغة هي الإيجاز[3]

ويفضل أيضا بيتي عنترة علي قول طرفة: (من الرمل)

أُسْدُ غِيل فإذا ما شربوا وَهبُوا كلَّ أمُون وطِمِر

ثم راحواعَبَقُ المسك بهم يَلْحفُون الأرضَ هُدَّاب الأزُرْ[4]

لأنه قصر في المعنى،ووصف القوم بالجود إذا تغيرت عقولهم فقط ونلاحظ من خلال هذه الموازنة الموضوعية والتي كشفت عن فضل الإيجاز ومكانته في الإبداع الأدبي، أن قول امرئ القيس أفضل من قول عنترة وطرفة؛ لأنه أجمع و أخصر، ثم يليه قول عنترة؛ لأنه وإن كان شاملا إلا أنه ليس موجزا، وفي النهاية تأتي منزلة طرفة في البلاغة؛ لأن قوله افتقد الشمول والإيجاز معا .

كما يفرق **المبرد** بين الكلام المعقد الغامض وبين الكلام المبسوط الواضح، ويعقد في ذلك موازنة بين قول قائل "للربيع بن خُثَيم" عندما رُئِى من اجتهاده وإغراقه في العبادة،

---

1 – البلاغة ، ص ٨٤ ، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٢٥

3– ديوان عنترة (في العقد الثمين) ص٦٩ تحقيق أهلوت ، لندن ١٨٧٠م.

3 - راجع الأقوال في ذلك عند صحار العبدي(٤٠هـ)، و ابن المقفع(١٤٣هـ)، والرشيد(١٩٣هـ)،وبعض الأعراب...في البيان و التبيين للجاحظ٩٦/١

٥– ديوان طرفة، ص ٦١

وانهماكه في الصوم والصلاة وسائر سبل الخير: قتلتَ نفسك ؛ فقال: راحتها أطلب. والمعنى فيه بيِّن واضح، وبين قول العباس بن الأحنف: (من الطويل)

سأطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا وتَسْكُبُ عيناي الدموع لتجمدا[1]

فيحكم **المبرد** للكلام الأول بأنه محيط بالمعنى لا فضل فيه ، بينما يحكم علي بيت العباس بأنه: أغترب فأكسب ما يطول به مقامي معكم ، وقربي منكم ؛ فيكون الثاني أحسن، والأول أوضح.

ومثل ذلك قول عروة بن الورد العبسي: (من الطويل)

تقول سليمي لوأقمتَ بأرضنا ولم تَدْرِ أنى للمقام أطَوِّفُ[2]

وهذا واضح حسن، وهو أبين من البيت الأول.

ومثله ما قيل لروح بن حاتم بن قبيصة : وهو واقف علي باب المنصور في الشمس، فقال: "ليطول وقوفي في الظل"، ويعقب المبرد علي ذلك بقوله: "فهذا كلام مكشوف واضح ، كانكشاف "كلام الربيع"[3]، فهو يشبه الكلام الواضح بكلام الربيع والحسن، وأنه أفضل من الكلام الغامض المعقد لأي سبب كان .

فالمبرد يرى في بيت العباس بن الأحنف شيئا من الغموض؛ لأن الوصول إلي المعنى المراد، وهو جعل جمود العين كناية عن المسرة أمر غير واضح تمام الوضوح؛ لأن الجمود هنا كناية عن البخل والشح بذرف الدموع، وليس كناية عن المسرة، وما فهم من كلام المبرد هنا هو ما عبر عنه البلاغيون بالتعقيد المعنوي الذي يخل بفصاحة الكلام[4] فلا يستطيع الوصول إلي القصد المحدد من كلام الشاعر بسبب فساد المعنى .

ثم يطالعنا **المبرد** باستحسان ما جاء في هذا المعنى من قول أبي تمام حبيب ابن أوس الطائي حيث يقول: "وأملح ما جاء في هذا المعنى، وأحسن قول الشاعر: (من الوافر)

١- ديوان العباس بن الأحنف، ص ١٠٦

2 - ديوان عروة بن الورد ، ص ٦٠

3 - البلاغة ، ص ٨٦

4 - عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص) ، ١ / ١٠٩

أ آلفة النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع

وليست فرحة الأوبات إلا لموقوف علي تَرَح الوداع

فهذا مليح حسن، والأصل ما ذكرنا[1].

و**المبرد** هنا يرسي قاعدة نقدية هامة، وهي الحيدة التامة في النص الأدبي بإبراز ما له وما عليه، بصرف النظر عن بيئة صاحبه أو تقدمه أو حداثته أو مكانته الاجتماعية، فهو هنا ينتصر لشاعر من الشعراء المحدثين تحقيقا لمبدأ "وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهضم المصيب، ولكن يعطي كلا ما يستحق"[2] .

فالموازنة عند **المبرد** لا تصح إلا إذا توفر بين الشواهد تقارب معانيها، فيقول: "وليس شعر نُصَيب هذا الذي ذكرناه في المدح، بأجود من قول الفرزدق في الفخر، وإنما يفاضل بين الشيئين إذا تناسبا"[3] ، فقد يعني بالتناسب: الاتفاق في الغرض، مدحا أو فخرا...إلخ، وربما قصد إلى الاتفاق في أصل المعنى أيضا، فقوله محتمل لهذا وذاك[4]. وعبارة المبرد هذه تنبئ عن ذوق وتمرس بالنقد الأدبي، وقدرة عليه وفهم لحقيقته، فالموازنة لا تكون حقاإلا بين الأمور المتجانسة، والأشباه والنظائر هي التي يمكن المفاضلة بينها.

والمبرد لا يقتصر على الموازنة بين شعرين فحسب بل يوازن بين شعر ونثر أيضا، ومن ذلك ما أنشده من قول أبي نواس:

ما حطك الواشون من رتبة عندي ولا ضرك ما اغتابوا

كأنهم أثنوا و لم يعلموا عليك عندي بالذي عابوا

فقد أشار**المبرد** إلى أن هذا المعنى مأخوذ من قول النعمان بن المنذر[5]، لرجل طعن في آخر طعنا هو أقرب إلى المدح منه إلى الذم، فكان رد النعمان عليه أردت أن تذمه

---

1 – البلاغة ، ص٨٦ .

2 – الكامل ، ١ / ٩٢ .

3 – نفسه ١ / ١٠٦–١٠٧

4 – الموازنات الشعرية ص٣٤٠

5 – من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية (ت ١٥ ق.م).

فمدحته[1]، ويعقد فى ذلك موازنة أخرى بين قول الحسن البصري: "إن امرءاً لا يعد بينه وبين آدم أباً حَيًّا، لَمُعْرَقٌ له في الموت"، فهذا قريب أخذه من قول لبيد: (من الطويل)

فإن أنت لم ينفعك عِلْمُك فاعتبر لعلك تُسْليك القرون الأوائل

فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معدن فلتزعك العواذل[2]

وكلام "الحسن" أخصر، وكلام "لبيد" أوزن، وأول هذا المعنى قول امرئ القيس: (من الوافر)

فبعض اللوم عاذلتي فإني سيكفيني التجارب وانتسابي

إلي عرق الثري وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني شبابي[3]

والمعاني كما ترى متقاربة، وإن كان كلام "الحسن" **أوجز** في عبارته وألفاظه، إلا أن كلام "لبيد" **أوزن**، وهو الشكل المميز للشعر، ويعود الفضل إلي امرئ القيس فهو **أسبق** إلي هذا المعنى. وقد ذكر **عبد القاهر** أن مما يقدم به شاعر سبقه إلى معنى غريب،أو استعارة بديعة، أو طريقة في النظم مخترعة[4].

يتضح لنا من هذه الموازنات التى أجراها **المبرد** بين الأشكال والنظراء أنه تحكمها بعض **مقاييس الجودة والفضل**، كتقارب المعنى، والإيجاز، والوضوح، والسلامة من التعقيد المعنوي، والإيقاع الموسيقي "الوزن والقافية"، والسبق إلي المعنى وإبداعه.

<u>أما الدرجة الثانية</u> من الموازنات بين قول الرسول – صلى الله عليه وسلم– وأقوال العرب

لقد كان **الرسول** – صلى الله عليه وسلم– في فصاحة لسانه وبلاغة قوله بالمحل الأفضل والموضع الأعلى الذي لا يجهل سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، وفصاحة لفظ، وجزالة قول، وصحة معنى، وائتلاف النظم، وقلة تكلف، وسليقة صحيحة.

---

1 – الكامل ١١١/٢

2 – الصناعتين ص ٢٢٠ . والبيتان في ديوان لبيد ص١٤١

3 - ديوان امرئ القيس ، ص٢١٣

4 - الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص١٣٣

يخبرنا الرافعي عن مكانة البلاغة النبوية بقوله: "هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكارلآياتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة"[١].

وهذه إشارة دقيقة إلى علو مكانة البلاغة النبوية بما لها من خصائص من أبرزها الإحكام ، وعدم التكلف. يقول المبرد: "فإذا جاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم رأيته من كل منطق بائنا، وعلي كل قول عاليا، ولكل لفظ قاهرا" [٢] .

وقد إشار **الجاحظ** (ت ٢٥٥هـ) إلي موازنات بين أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم –وبين أقوال الأدباء، حينما عقد موازنة بين قوله صلى الله عليه وسلم : "**الناس كلهم سواء كأسنان المشط**"[٣] وقول كثير عزة:

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبة علي ناشئ فضلا

حيث يقول: إذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي وحقيقته، عرفت فضل ما بين الكلامين[٤].

كما يوازن **المبرد** بين ماقاله العرب في باب تصرف الزمان، وتصرم الآجال،وهي أقاويل معناهاواحد،يقول لبيد بن ربيعة[٥]:

(من الكامل)

كانت قناتي لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربي في السلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء

يقول:تقربني من أجلي،ومثله قول النمر بين تولب: (من الطويل)

يسرالفتى طولُ السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل

يود الفتى بعد اعتدال و صحة ينوء إذا رام القيام ويحمل [٦]

---

1 – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الفكر العربي ، بيروت (د.ت)، ص ٢٧٩

2 – البلاغة ص ٨٧

3 - أخرجه أبو داوود وابن ماجة، وصحه الألباني في شفا الغليل

4 - البيان والتبيين ، ١ / ١٩ .

5 - البيتان للبيد في ملحق ديوانه (نشر هوبر/بروكلمان) ص٥

6 - الكامل ، ١٢/٢

وقال حميد بن ثورالهلالي: (من الطويل)

أرى بَصَرِي قد رابني بعد صحَّة وحسبُك داء أن تصِح وتسلما

ولا يلبث العصران يوما وليلة إذا طلبا أن يُدْرِكَا ما تَيمّما[1]

وفي هذا المعنى قال"أبو الحسن" قيل لأعرابي: مات فلان أصحَّ ما يكون، فقال : أوصحيح منْ في عنقه الموت ؟!.

وقال غيره : (من الطويل)

إذا بلَّ من داء به ظن أنه نجا وبه الداء الذي هو قاتله

ويقال إن " سيبويه " كان يتمثل بهذا .

ويصدر **المبرد حكمه أولا** بين الأشباه والنظائر (من الشعر والنثر) مما اشترك في المعنى الواحد، بأن كل هؤلاء محسن مجمل (يعني توفر القيمة البلاغية)، والفضل فيهم لأوزنهم كلاما، وأسبقهم إلي المعنى، وهذه إشارة إلي أفضلية الشعر علي النثر عنده، وأفضلية السابق إلي المعنى علي اللاحق به .

ثم يصدر **حكما ثانيا** بعلو مكانة قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم–:"**كفى بالسلامة داء**"[2]،حيث لازيادة ولا نقصان في الألفاظ، ولا يطول المعنى، ولا يقصر عنه، مع فخامة الألفاظ وجزالتها، فأى كلام أوعظ أو زجر في القلب أوقر؟ فكلام رسولنا الفصيح أكبر من أن يحده وصف أو يحيط بكهنه قول .

فالناظر في كلامه– صلى الله عليه وسلم –: "**كفى بالسلامة داء** " يلاحظ أنه كان يميل إلي الإيجاز وعدم التزيد والتطويل، وهذا أمر طبيعي لأن الله منحه كمال العقل وغلبة فكره علي لسانه، فقل كلامه وتنزه عن الحشو، كما يلاحظ أنه كان يتخير في خطابه ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأدقها وأرقها وأبعدها عن ألفاظ أهل الجفاء، فتميز أسلوبه بحسن انتقاء الألفاظ التي تشاكل المعاني وتليق بها، وهو ما أسماه البلاغيون

1- ديوان حميد بن ثور الهلالي ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، القاهرة ١٩٥١ م ،ص٢١٣.

2 - رواه الديلمي في الفردوس عن ابن عباس ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع .

"مشاكلة اللفظ للمعنى"[١] ، . وهكذا كان الحكم في بلاغة الرسول وفصاحته وعلوه علي كل قول .

ونرى أن **المبرد** قد استدل بالحديث الشريف، واستشهد به، وفسر ما غمض، وكل ذلك يشير إلي دلالة هامة علي ما أعتقده أنه رأى من الخير الاستدلال بكلام سيد المرسلين لما تضمنه من آراء وحجج سواء قيلت باللفظ أو رويت بالمعنى؛ فالعهد قريب ومواطن الفصاحة منتشرة؛ والبعد عن الحديث الشريف بعد عن مواطن الفصاحة والبلاغة في أدق معانيها .

الدرجة الثالثة: بين نظم القرآن ونظم الشعر:-

لقد بهر القرآن الكريم العرب . وفى مقدمتهم الأدباء . بروعة أسلوبه، وسحر بيانه، وهم فرسان الكلمة وأساطين البلاغة والفصاحة ، حتى أعرب "**الوليد بن المغيرة**" فى فطرية مدربة عن مدى تذوقه لروعة الأداء القرآني بعد أن استمع لبعض منه، فيقول إنه استمع من محمد كلاما ليس من كلام الأنس ولا من كلام الجن، ثم يصفه بناحية مادية تتمثل فى حلاوته، وناحية معنوية تتمثل فى طلاوته، ثم يدقق هذا التذوق باعتبار ما يهدف إليه التعبير القرآني فى أن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق، ثم يختم كل ذلك بمقارنة عامة تجمع بين القرآن وبين غيره من ألوان الأداء الأدبي فيجعله فى منزلة لا تعلوها منزلة أخرى[٢] كما حاول البعض بيان الفرق بين كلام القرآن وبين جيد كلامهم، بعدما وقفوا منه على فصاحة، وبلاغة، ونظم، تفوق ما تعارفوه، فقال عتبه بن ربيعه: "إني سمعت قولا، ما سمعت مثله قط، والله ما هو بشعر"[٣]، وهو لا يقول هذا القول حتى يكون قد تبين فرق ما

1والمـ شاكلة بـ اللف ظ والمعنـ ضرورية فـ ي التعبيـ ر؛ لأن لكل معنى لفظـ ا يدل عليه يصـ ورة مـ ن الصور التي يريد الشاعر أو الكاتب أن يعبر عنها.للمزيد انظ ر معجـ م المـ صطلحات البلاغيـ ة دأجمـ د مطلوب ، ص ٢٦٢

2 – جدلية الإفراد والتركيب، ص ٢٢.

3 – السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠٦/١

بين القرآن وبين كلامهم، وبقول عتبه قال، وبحكمه حكم جماعة من بلغائهم[1] ، ومن هنا جاءت فكرة الموازنة بين نظم القرآن ونظم الشعر

وفكرة الموازنة بين النظم القرآني والنظم الشعري لم تكن من إبداع المبرد، فقد سبقه **الفراء (ت ٢٠٧هـ)** والذي حاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن، حيث يقول: إن للقرآن ماللشعر والكلام الموزون من صفات، ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم: تجاوب الكلمات مع وزن الآية، ومراعاة رؤوس الآيات للنسق"[2].

ويظل **الفراء** يعرض علينا قواعد عامة للتغيرات التي تمكن أن تطرأ على الكلمات، كعدول القرآن عن لفظه إلى آخر، أوتعديله للألفاظ في مواضعها، وحذف أواخر الكلمات، والتي قد يعمد إليها القرآن أحيانا للتوافق الموسيقي فى نظمه، وصلة تلك التغيرات بما يطرأ على القافية من الشعر لإقامة الوزن" **فالفراء** حين يصادف الحذف فى بعض آيات القرآن يجده شيئاً مألوفاً، فالعرب جرت على هذا الحذف فى أساليبها، واعتبرت فى كلامها الإيجاز، طالما أنه لا يؤدى إلى خلل فى فهم المعنى، وعلى هذا النحو يجرى الحذف فى الكلمة والجملة والجمل، وكل ذلك مألوف لدى العرب عند علم المخاطب به قصداً للإيجاز والاختصار[٥].

والزيادة كالحذف مألوفة فى أساليب العرب، ولذلك يجيز الفراء الزيادة فى القرآن، وهو فى ذلك متحرر من قيود المتزمتين الذين يرفضون الزيادة فى القرآن رفضاً تاماً ظناً منهم أن فى ذلك تبرئة للقرآن من الزلل، وتنزيهاً له عن العبث والمطاعن، وهم فى ذلك يتكلفون فى تخريج الآيات التى تحمل زيادة تخريجاً بعيداً متكلفاً لا يتفق وروح العربية التى نزل بها القرآن، وهو يرى فى هذه الزيادة ضرباً من التوكيد الذى يزيد العبارة تثبتاً ويقيناً وتقريراً

---

1 – انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٢١٣

2– معاني القرآن ، ١٣٢/١

٥ - معانى القرآن ، ٢١٩/٢.

والشواهد على ذلك كثيرة، فالفراء شغل نفسه بمطابقة الأسلوب القرآنى لأساليب العرب فى كلامها، وعقد الموازنات بينهما.

كما أشار **الجاحظ (ت٢٥٥هـ)** إلي أنه بقدر دقة الألفاظ في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن، يقول: "وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى، لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك المطرلأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والأمة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر، وبين ذكر الغيث .... "[١].

وهذه إشارة إلى أن القرآن قد أولى اللفظ عناية خاصة، فاختاره بدقة ليدل على المعانى بدقة، ومراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتى بالألفاظ المترادفة دالا على معنى واحد، وإنما للدلالة على معان مختلفة.

كما بدأ **ابن قتيبه (ت ٢٧٦هـ)** – كتابه تأويل مشكل القرآن– ببيان حال العرب في مباني ألفاظها وإعرابها، وتحدث عن مكانة الشعر عندها، وهو الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيدا[٢] إلي أن قال باتساق لغة الخطاب القرآني مع غيره من أنواع الخطاب العربي: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومأخذه، فمنها الاستعارة والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض، والإفصاح والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ..... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"[٣]

---

1 – البيان والتبيين ، ١ / ٢١

2 – تأويل مشكل القرآن ، ص ١٤

3 – نفسه ، ص ١٢٠

أراد **ابن قتيبة** أن يشير إلي قضية إعجاز القرآن من ناحية نظمه وتأليفه، والتعرف على هذا النظم يقتضي إدراك القالب اللغوي، ومعرفة أسرار الألفاظ العربية، وتراكيبها وأساليبها، مما يدل على وجود مساحة مشتركة بين خطاب القرآن وخطاب العرب.

والمبرد يوازن ـ فى كتابه "البلاغة"ـ بين نظم القرآن ونظم الشعر ليدلنا على أن الشعر مهما ارتقى وبلغ منزلة عالية، فإنه لن يصل فى بلاغته أو فصاحته إلى الدرجة التي يتسنمها القرآن، يقول المبرد: "فإذا جاء القرآن نظرت إلى الشئ الذى هو أوحد، والقول الذي هو منبت، ألا ترى أن الله جعله الحجة والبيان والداعي والبرهان، وإنما وضع السراج للبعيد المستضيء، لا للأعمى والمتعامي"[1]. وعلى هذا الأساس أخذ **المبرد** يوازن بين قول مروان بن أبي حفصة يهجو قوما رواة الشعر بأنهم لا يعلمون ما هو، علي كثرة استكثارهم من روايته،فقال[2] : (من الطويل)

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الغرائر[3]

حيث يشير الشاعر إلي أنه ليس كل من روى الشعر عالما به خبيرا بمضايقه، فمنهم من يحفظه ولا يميز جيده من رديئه؛ ولذا قال: "لا علم عندهم بجيدها، حيث شبه الشاعر رواة الشعر الذين يستكثرون من حفظه ثم لا يميزون بين الجيد والردئ بالأباعر التي تحمل العزائر غادية ورائحه وهي لا تدري ما في داخلها، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تحمل التعب في استصحاب الشيء مع الجهل به، علي سبيل التشبيه التمثيلي، وبين قوله تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً"(**الجمعة آية٥**) .

---

1 – البلاغة ص ٩٠.

2 – نفسه ص ٩١ .

3 – الكامل ٣ / ١٣٢ :الزوامل جمع زامله وهى البعير التى يحمل عليها المتاع ، والأوساق جمع وسق وهو حمل البعير.

وهذا تشبيه تمثيلي أيضا فقد شبه أحوال اليهود حيث لم ينتفعوا بما في التوارة من الدلالة علي الإيمان بمحمد –صلى الله عليه وسلم– والإلماح إلي بعثته، بأحوال الحمار الذي يحمل الكتب التى هى أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ولا يدري ما فيها ووجه الشبه عدم الانتفاع بما هو حاصل وكائن .

والتشبيه في النظم القرآني يزيد من أقدار المعاني، ويضاعف من فضلها، وتبعث قواها في تحريك النفوس لها بالإضافة إلي وضوح الفكرة والمبالغة فيها والإيجاز للوصول إلي الغرض.

كما يوازن بين قول الخنساء ترثي أخاها صخرا: (من الوافر)

ولولا كثرة الباكين حولي علي إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزِّي النفس عنه بالتأسِّي[1]

وبين قوله تعالى: "وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ"(الزخرف٣٩) أي ما نزل بكم أجل من أن يقع به الناس، ونظر بعض إلي بعض. وواضح ما في النظم القرآني من إيجاز بليغ في أداء المعنى .

كما يعقد مقارنة بين قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"(البقرة ١٧٩) وبين قول"أردشير بن بابك": "القتل أقل للقتل"، ويذكر د."**عبد القادر حسين**" أنه: "وربما كان المبرد هو أول من عقد المقارنة بين هذين المعنيين، فأبو عبيدة قد أغفل المقارنة، والفراء تجاوز الآية إلي غيرها"[2] .

ويقول المبرد في قول أردشير:"إذا قُتِلَ القاتل امتنع غيره من التعرض للقتل ، فهذا أحسن الكلام من كلام مثله ... وإذا جاء قوله عز وجل: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ .." جاء ما لا اعتراض عليه ولا معارضة له وقوله: "يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" خطر ثان ، فتبارك الله الذي ليس كمثله شيء"[3]. ولقد دارت هذه المقارنة في كتب البلاغيين المتقدمين منهم والمتأخرين علي

---

1 – ديوان الخنساء، ص٥٠

2 – أثر النحاة ، ص ٢٠٨

3 – البلاغة ، ص ٣٩

حد سواء؛ لبيان أن نظم القرآن قد بلغ الغاية القصوى في البلاغة، وأن أية بلاغة مهما علت فإنها لن تبلغ القمة التي وصلت إليها بلاغة القرآن .

ولقد استفاد العلماء من هذه المقارنة في الاستدلال علي بيان إعجاز القرآن وروعة التعبير القرآني، **فالرماني (ت٣٨٤هـ)** عقد موازنة بين قوله تعالى :"وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ "، والحكمة الجاهلية "القتل أنفى للقتل"، وقال: "إن بينهما تفاوت في البلاغة والإيجاز، وذلك يظهر في أربعة أوجه أنه أكثر فائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد في الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا ..... فباجتماع هذه الأمور جميعا صار أبلغ منه أحسن"[١] .

كما عقد **الباقلاني (ت٤٠٣هـ)** بابا كبيرا ليبين أن فصاحة القرآن تفضل فصاحة كل نظم، وتربو بلاغته على كل قول، ويعمد في هذه المقارنة إلي شعراء أجمع النقاد علي عظم شأنهم ورفعة أقدارهم، فيختار شاعرا من العصر الجاهلي كامرئ القيس وشاعرا من العصر العباسي كالبحتري، ثم يختار قصيدة لكل منهما متفقا علي كبر محلها، وصحة نظمها،وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإبداع صاحبها فيها، فيبين ما تخللها من نقص وفضول، وما بها من تعسف وتكلف، وما فيها من مزج بين الكلام الرفيع والوضيع، ثم يبين فضل القرآن عليها وتناهيه في البلاغة، ثم نراه يصدر حكما نهائيا: "بأن الذي يعارض القرآن بشعرامرئ القيس لأضل من حمار باهلة وأحمق من هنبقة"[٢]

فالقرآن معجز بنظمه الخارج عن نظوم البشر، والمؤثر في النفس، والمقنع للعقل، يقول **الرافعي:** "وقد وردت فى القرآن ألفاظ هى أطول الكلام عدد حروف ومقاطع، مما يكون مستثقلاً بطبيعة وصفه أو تركيبه، ولكنها بطريقة استعمالها ووجه تركيبها فى تركيب ممتنع فقد خرجت فى نظمه مخرجاً سوياً، فكانت من أحسن الألفاظ حلاوة، وأعذبها منطقاً، وأخفها تركيباً"[٣]، ونلاحظ الفارق بين موازنة الباقلاني والمبرد بين النظم القرآني ونظم العرب ، **فالباقلاني** لم يتقيد باتفاق المعنى في موضوع الموازنة، وإنما يقوم علي ما في القرآن من

---

1 – ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ص ٧١–٧٢

2 – إعجاز القرآن للباقلاني ، ص٢١١

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعى، ٢ دار الفكر العربى، ١٩٩٥م، مصر، ط٣، ص٢٢٢

نظم عجيب، وما في الشعر من تهافت كثير وإن لم يكن بينهما جهة اتفاق في المعنى، وإنما يسوق البراهين علي رفعة الأول وسقوط الثاني؛ مما يجعل كلامه أقرب إلي العموم والشمول منه إلي الخصوص، بينما **المبرد** يلحظ اتفاق المعنى بين الآية القرآنية والبيت أو البيتين من الشعر، ويشير بعد ذلك إلي دقة التعبير اللفظي في النظم القرآني، وأنه يوفي بالغرض من أقصر الطرق وأوضحها، وهي بذلك أقرب إلي الموازنة الموضوعية الصحيحة في أدق معانيها.

وكأن **المبرد** يضع لنا المقاييس الفنية والأسس الموضوعية لمن يرغب في عقد موازنات بين النظم القرآني ونظم الشعر، تقوم علي أساس اتفاق المعنى بين النظمين، ثم تحليل كل منها علي الأسس الموضوعية من القيم البلاغية والدلالية من إيجاز، ودقة الألفاظ، وملائمتها لمعانيها؛ ليكون بذلك النواة الأولى لمثل هذه الموازنات التي تبين فضل نظم القرآنى علي غيره من النظوم وتناهيه في البلاغة.

الخاتمة :

لقد أدرك النقاد العرب القدامى أهمية فكرة الموازنة كوسيلة فنية لبيان المفاضلة بين عملين أدبيين، وإبراز القيمة الأدبية للنصوص، لذا حاول **المبرد** وضع بعض الأسس المنهجية والمعايير الفنية التى يوازن من خلالها بين الأجناس الأدبية، ومنها :-

١-القيمة البلاغية ٢- الوزن والقافية ٣- الطبع وسرعة البديهة.

فأرجع القيمة البلاغية إلى إقامة العلاقات المتوازنة بين اللفظ والمعنى، حيث يعتمد البليغ في ذلك على الوحدة والتلاؤم والانسجام بينهما، ولا يتحقق ذلك إلا باختيار الألفاظ على أساس التناسق بين الوحدات، والتلاحم بين الأجزاء إلى درجة التماسك والتعاضد في نطاق البنية العامة للنص، و يتم ذلك في إطار حسن التأليف والنظم، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، والعناية بالجوانب المعنوية بتقريب البعيد الذي يبرز جانب المقابلة بين البعيد والقريب، والواضح والغامض، وبحذف الفضول الذي يبرز مبدأ (إصابة المقدار)، و يقوم على التناسب والتوازن بين اللفظ والمعنى.

ثم يأتي الوزن والقافية ليكسب النظم إيقاعاً موسيقياً، وهو أمر يحتاج من صاحبه إلى مقدرة ومهارة خاصة تحقق له بعض التفوق على الناثر، ثم تأتي طبيعة المبدع ومقدرته اللغوية فى الصياغة وتركيب الكلام دون تكلف أو عناء، بحيث يرجع التفاضل إليها .

ولايكتفي المبرد بالتنظير لهذه الأسس والمقاييس التي يعتمد عليها فى الموازنة، ولكنه يتجه إلى معالجة الموازنات بين النصوص الأدبية (الشعروالنثر) التي ترد فى معنى واحد أو متقارب مع بيان اختلاف الصياغة والتراكيب؛ فيصدر المبرد حكمًا بين الأشباه والنظائر من الشعر والنثر بأن كل هؤلاء محسن مجمل، والفضل فيهم لأوزنهم كلاما، وأوجزهم لفظا، وأسبقهم إلى المعنى.

ثم يصدر حكما ثانيا بعلو مكانة قول الرسول(صلى الله عليه وسلم) حيث لا زيادة ولا نقصان فى الألفاظ، ولا يطول المعنى ولا يقصر عنه، مع فخامة الألفاظ وجزالتها، مع مراعاة مقتضى الحال.

ثم يصدر حكما ثالثا يوضح فيه أن الشعر مهما ارتقى شأنا وبلغ منزلة عالية، فإنه لن يصل فى بلاغته أو فصاحته إلى الدرجة التي يتسنمها القرآن؛ لتناهيه في البلاغة والإعجاز.

أهم المصادر والمراجع

١- أبو العباس المبرد والبلاغة فى كتابه الكامل ، د. مصطفى السيد جبر القاهرة ، مكتبة الآداب ، ط١ ، ٢٠٠٧م.

٢- أثر القرآن فى تطور النقد ، د. زغلول سلام القاهرة ، طبعة دار المعارف ، ط٢ ، (د-ت).

٣- أثر النحاة فى البحث البلاغي ، د. عبد القادر حسين القاهرة ، طبعة نهضة مصر، ١٩٧٥ م.

٤- أساس البلاغة : للزمخشري ، تح: عبد الرحيم محمود القاهرة، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٣م.

٥- إعجاز القرآن ، لابى بكر الباقلانى تح: السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤، ١٩٧٧م،
٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للأستاذ مصطفى صادق الرافعى، دار الفكر العربي ، بيروت ،ط٣ ، ١٩٩٥م.
٧- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت .
٨- الإيضاح فى شرح تلخيص المفتاح ، للخطيب القزويني، شرح وتعليق د/محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة ، طبعة مكتبة الحسين ،١٩٤٩م.
٩- البرهان في وجوه البيان ، لابى اسحاق بن وهب الكاتب تح: حفني شرف، مكتبة الشباب ، القاهرة، ١٩٦٩م.
١٠- البلاغة : للمبرد، تح د/ رمضان عبد التواب ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط٢ ،١٩٨٥م.
١١- البيان والتبيين : للجاحظ ، تح : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ١٣٩٥هـ.
١٢- البيان فى ضوء أساليب القرآن ، د.عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، ١٩٧٧م.
١٣- تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، تح السيد أحمد صقر ، مطبعة دار التراث ، ط ١٩٧٥م.
١٤- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله ، د/ زغلول سلام ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨م.
١٥- جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، د. محمد عبد المطلب
الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ط١، ١٩٩٥م.
١٦- ساعات بين الكتب ، للعقاد ، دار المعارف بمصر ، ط٣ /١٩٥٠م.
١٧- سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م
١٨ - السيرة النبوية : لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ،
طبع دار إحياء التراث العربى، بيروت، (د.ت).
١٩- شرح ديوان الحماسة : للمرزوقي ، نشر/ أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٧م.

٢٠- الصاحبي فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ، لابن فارس ، تح/ السيد أحمد صقر ، القاهرة ، مكتبة البابى الحلبي ، ١٩٩٧م.
٢١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا : للقلقشندي ، دارالكتب المصرية ، ١٩٢٢م.
٢٢- الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تح. على محمد البيجاوي ، و محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، ط عيسى البابي الحلبى ،١٩٥٢م.
٢٣- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، القاهرة - دار المعارف
٢٤- العقد الفريد، لابن عبد ربه، تح أحمد أمين وآخرين، القاهرة ١٩٤٨م
٢٥- العمدة في محاسن الشعروآدابه: لابن رشيق القيرواني ، تح :محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٣٤م.
٢٦- عيار الشعر: لابن طباطبا العلوي، تح/ د.طه الحاجري ،و د. محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ، ١٩٥٦م.
٢٧- اللغة الشاعرة : للعقاد ، مكتبة الأنجلو العربية ، القاهرة ١٩٦٠م.
٢٨- الفهرست ، لابن النديم ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ.
٢٩- قضايا النقد الأدبي القديم والحديث د. محمد زكي العشماوي
منشأة المعارف الاسكندرية -١٩٩٣م.
٣٠- الكامل فى اللغة والأدب : للمبرد ، بيروت، مؤسسة المعارف (د.ت).
٣١- كولردج ، د.مصطفى بدوى ، دار المعارف ،القاهرة، ط١، ١٩٥٨م.
٣٢- لسان العرب ، لابن منظور، المطبعة الأميرية ط٤، ١٩٣٨م.
٣٣- المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، د.أحمد جمال العمري، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٩٠م.
٣٤- مختارات من النقد العربي ، مجموعة مقالات مترجمة ، ترجمة د/رشاد رشدي ، مكتبة الأنجلو (دت).
٣٥- المصباح المنير، للرافعي، القاهرة، المطبعة الأميرية، ط٨، ١٩٣٦م.
٣٦- معانى القرآن، للفراء، تح/ محمد على النجار، أحمد يوسف نجاتى، طبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة،مايو ١٩٦٦م.
٣٧- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة مصر،١٩٦١م
٣٨- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د/ أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان . ط٢ .١٩٩٦م.
٣٩- معجم مصطلحات النقد العربي القديم ، د/ أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ، ط١ .٢٠٠١م

٤٠- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، د. مجدي وهبه ، مكتبة لبنان ،١٩٨٤م.
٤١- المقابسات ، لأبي حيان التوحيدي، القاهرة - الرحمانية ١٩٢٩م
٤٢- المقتضب ، للمبرد ، تح/ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ،
ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٥هـ.
٤٣- الممتع في صنعة الشعر:لعبد الكريم النهشلي، تح:د.محمد زغلول سلام، مطبعة منشأة المعارف بالأسكندرية(د.ت) .
٤٤- منظور المتلقي في التراث النقدي العربي د/ عيد محمد شبايك
بحث منشورفي مجلة كلية آداب المنوفية
٤٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء . للقرطاجني ، تح/ محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، ط٣ ،١٩٨٦م.
٤٦- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: للأمدي ، تح / السيد أحمد صقر ، دار المعارف القاهرة ، ط٢، ١٩٧٢م.
٤٧- الموازنات الشعرية في النقد العربي القديم، للدكتور كمال عبد الباقي لاشين، دار البصائر ، القاهرة ،ط١، ٢٠٠٧م
٤٨- النثر الفني في القرن الرابع الهجري . ذكي مبارك ، المكتبة العصرية صيدا بيروت (د.ت)
٤٩- نظرية الأدب، رينيه ويلك ، ترجمة: محى الدين وحسام الخطيب ، دار الفكر بيروت ط٣ (دت)
٥٠- النقد الأدبي: د. سهير القلماوي ، دار المعرفة، ط٢ /١٩٥٩م.
٥١- نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تح: محمدعبد المنعم خفاجي
القاهرة ، المطبعة المليجية ، القاهرة ١٩٣٤م.
٥٢- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي ، تح/ د. محمدزغلول سلام ود . مصطفى هدارة ، الإسكندرية ، ١٩٧٤م
٥٣- الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي عبد العزيز الجرجاني،تح: محمد أبوالفضل وعلي محمد البجاوي،دار إحياء الكتب العربية،ط٢/ ١٩٥١

ثانيا : الدواوين الشعرية :

١-ديوان الأعشى الكبير(الصبح المنير في شعر أبي بصير)،تحقيق جاير ١٩٢٧م
٢- ديوان امرئ القيس ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ،

دار المعارف القاهرة ط٣ /١٩٦١م
٣- ديوان أبي تمام ، تح محمد عبده عزام ، القاهرة ١٩٥١م
٤- ديوان جميل بن معمر ، جمعه وحققه د/ حسين نصار ، دار مصر ، ط٢/١٩٦٧م
٥- ديوان حسان بن ثابت ، تح سيد حنفي حسين ، القاهرة ١٩٧٤م .
٦- ديوان حميد بن ثور ، تح د/إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٧١م .
٧-ديوان أبي حية النميري، تح ديحيى الجبوري ، دار الثقافة بيروت ١٩٧١م.
٨- ديوان الخنساء ، دار صادر بيروت ١٩٧١م .
٩- ديوان دعبل الخزاعي ،تح دمحمد يوسف نجم، دار الثقافة بيروت ١٩٦٢.
١٠- ديوان ذى الرمة ، تح عبد القدوس أبو صالح ، مجمع اللغة العربية١٩٧٠م .
١١- ديوان زهير بن أبي سلمى ، تح د/فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة١٩٨٠م
١٢- ديوان طرفة ، بشرح الشنتمري، تح درية الخطيب،مجمع اللغة بدمشق ١٩٧٥م .
١٣- ديوان العباس بن الأحنف ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨م .
١٤- ديوان عروة بن الورد ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨م.
١٥- ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تح محمد محي الدين ، دار الأندلس،بيروت
١٦-ديوان عنترة، حققه محمد سعيد مولوى،المكتب الإسلامى بدمشق١٩٧٠م.
١٧- ديوان النابغة ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ١٩٧٧م.

فهرس الموضوعات

التمهيد

المبحث الأول (فكرةالموازنة المفهوم والنشأة)ويشمل :

- الموازنة لغة واصطلاحا
- الموازنة وعلاقتها بالنقد الأدبي
- نشأة الموازنة في النقد العربي
- المفاضلة بين الشعر والنثر

المبحث الثاني (معايير الموازنة عند المبرد) ويشمل :

- القيمة البلاغية

- الوزن والقافية
- سرعة البديهة

المبحث الثالث :(النطاق التطبيقي للموازنات) ويشمل :

- موازنات بين الأشكال والنظراء
- موازنات بين أقوال الرسول وأقوال العرب الفصحاء
- موازنات بين نظم القرآن و نظم الشعر
- الخاتمة
-الفهرس